الباب الأول

الأسس والقواعد للفكر الإسلامي الشامخ

الفصل الأول

البِنَاءُ الإِسلاميُّ
وموقعُ العقيدة منه

الإسلام نظام شامل لنُظم الحياة

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩] .

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص : ٢٩] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٢٨] .

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٨] .

كتاب معجز ، وذكر مبين ، وآيات مباركات ، كل ذلك أنزله عالِمُ الغيب والشهادة ، العزيز الحكيم ، على قلب المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ليكون رسولاً هادياً بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه ، إلى الناس كافة ليعطيهم بذلك السعادتين ، سعادة الحياة الدنيا ، وسعادة الحياة الأخرى ، ويبدلهم من ظلامهم نوراً مبيناً ومن ضلالهم حقّاً واضحاً ، ومن جهلهم علماً كريماً ، ومن فوضاهم الاجتماعية ، نظاماً كاملاً عظيماً ، ويهديهم صراطاً مستقيماً . ولا ريب أن حالة العالم قبل النور المحمدي كانت أسوأ حالة وأَمَرَّها ، كما كانت الفوضى الاجتماعية قد استحكمت ، والجهل المَقيت قد خيّم بكَلْكَله ، والظلم المقنَّع أو المفضوح قد استتب واطمأن .

وبالجملة ، فلقد كان العالَم يسير في طريق الهاوية ، نحو الخراب والدمار في جميع شؤون الحياة ، حتى أصبحت الأرض سجناً كبيراً ، بل ساحة معارك طاحنة وأطماع مالها أول وليس لها آخر .

فكانت الأمم تعيش في هذا الأَتُّون العظيم من الجهل والظلم والضلال ، وليس لها من يأخذ بيدها ، فينقذها من هذه الهاوية التي ينجرف نحوها العالَم ، وإنما كانت تلك الهاوية قابَ قوسين أو أدنى .

فمن الناحية الاعتقادية : كانت عبادة المُلوك وعبادة الأحجار وعبادة الأشجار ، بل وعبادة البقر والشيطان ، كل أولئك كان منتشراً في أنحاء العالَم مما تَقْذَى له العيون وتشمئز منه النفوس وتقشعرُّ له الأبدان .

ومن الناحية العلمية : كان الجهل مخيِّماً على البشرية ، فما كان أحد من الناس يستطيع أن يدرك أوْ يفكر ، أن هذا الكون بحاجة إلى كشف أسراره ونواميسه ، وأن البشرية لاتسعد ولا تهنأ إلا بازدياد المكتشفات والمخترعات ، وأن الجهل يجب أن يذهب إلى غير رجعة ، ولقد كانت الحروب الطاحنة بين الأمم الكبرى هي سبب هذا الجهل والظلام الدامس ، مما سبب تحجراً في العقول وجماحاً في النفوس .

ومن الناحية السياسية : كانت الدول تتطاحن فيما بينها على الزعامة العالَمية من غير منافس ، وكانت الدول نفسها يتطاحن أفراد الأسرة المالكة فيها على الملك وشهوة السلطان ، كما كان الشعب يتربص الدوائر بالأسرة المالكة ، ليتغلب بعض أفراد ممن امتلأت جوانحهم بتلك الشهوة العارمة ، شهوة التغلب والتسلط ، وهكذا كانت الدول تحاك فيها الفتن ، وكانت الدول نفسها تحيك المؤامرات ، فكان العالَم كله فتناً وحروباً واضطرابات .

ومن الناحية الاجتماعية : كانت هنالك طبقات في المجتمع الواحد ؛ فطبقة الأشراف وهم السادة البيض الذين هو دعائم المجتمع ، وهم الأسياد الجديرون بالحياة الكريمة ، وطبقة المشعوذين والسحرة ، وكان لهم سلطان كبير على النفوس لاستعباد العالَم عن طريق السحر الأسود ، وعبادة الشيطان واستخدام الجان والنجوم ، فكانت هاتان الطبقتان تمثِّلان الطبقة الاستغلالية الغنية في المجتمع القديم .

وطبقة النساء : وهي طبقة ضعيفة جداً ، حتى إن الرومان قد عقدوا قبل الإسلام مؤتمراً في القسطنطينية ، وكان موضوع اجتماع علمائهم هؤلاء هو جنس النساء ، هل هو من طبقة الإنسان أم من طبقة الحيوان ؟! فكانت النساء لا ترِث ولا تُورَث ، تعمل لتأكل وتعيش ، وليس لها أية قيمة عائلية كريمة ، وطبقة العبيد وهم أذلُّ طبقة وأحطّها ، حتى إنهم كانوا يُقتَلون ويعذَّبون بأنواع العذاب ويُسامون الخسف والذل والهوان ، وتوضع عليهم في الجاهلية موائد الخمر ، ليكرعها السادات وهم يبولون على أفخاذهم ولا يرثي لهم أحد .

والخلاصة . .

أن الطاغوت قد استتب سلطانه في هذا المجتمع المنحلّ المتوهِّن ، والشيطان قد جمع خيوط الإثم بين أصابعه ، يُحرِّك الأهواء والشهوات كما يشاء ، وينشر الفوضى الاجتماعية .

في غمرة تلك الحالة المخزية والوجل من النهاية المحتومة للعالَم بُعث سيد الرسل محمد ﷺ ، وجاء من عند ربه بفرقان جامع للدواء الناجع السريع ، وبلَّغ رسالة ربه فكانت بلسماً لأمراض المجتمع الفتاكة ، وكانت رحمة وهدى ونوراً وضياءً يهدي من اتبعه إلى سبل

السلام ، فكان الإسلام بذلك وهو رسالة الله الخالدة ديناً ونظاماً جامعاً شاملاً لنواحي الحياة جميعها .

فمن الناحية الاعتقادية : أثبت الإسلام في أول مبادئه أن الله واحد لا شريك له ، وهو المحيي والمميت ، وهو المعز وهو المذل ، وأن رسله وأنبياءه كثيرون وخاتمهم هو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام صاحب الشريعة الناسخة لجميع الشرائع ، وأن هنالك يوماً آخر هو يوم الدِّين ـ يوم الجزاء ـ يوم الخلود ، يجازى فيه الناس على أعمالهم ، إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشر ، وهكذا استتبت أول حلقة من الحلقات هذه ، حلقات نظام الإسلام . ولكن هذه العقيدة بحاجة لنظام يحرسها ويصونها ، ويضمن ارتباط هذا الإنسان الضعيف العاجز بالله عز وجل ، يضمن ارتباط هذا الإنسان الفقير بربه الغني العظيم ، وكان هذا الارتباط في نظام جامع هو نظام العبادات .

ومن الناحية السياسية : حرّم الحرب إلا للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ، وحرّم قتل العاجزين كالصبيان والنساء والرهبان ، وحرّم حرق الأشجار وهدم المنازل والتسلط على الأعراض وإهلاك الحرث والنسل ، مما كان مفخرة نظام الحرب في العالَم .

ومن الناحية الاجتماعية : قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وقال عليه الصلاة والسلام : « الناس سواسية كأسنان المشط » .

وبهذا يكون الإسلام قد أرسى نظام العدالة الاجتماعية في المجتمع ، وسوَّى بين الناس ولم يرفع أحداً إلا بما يستحق كالتقوى والورع ، ولم يخفض أحداً إلا لما يستحق كالكفر والفسق والفجور ، لأن الأول يستحق

الرفع والآخر يستحق الوضع ، فهدم كل عصبية وجاهلية وقبلية وأقام بدلها ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

وحقق نظاماً للمال أقام فيه العدالة الاجتماعية الكاملة .

هذه هي رسالة الإسلام ، رسالة عامة شاملة لجميع نواحي الحياة ، بَلْه كان نظاماً متكاملاً .

* * *

نظام العقيدة في الإسلام

١ـ الحلقة الأولى : وجود الله :

قال تعالى : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل : ٦٠ـ٦٤] .

﴿أَإِلَٰهٌ مَعَ الله﴾ هذا ما أَكّد عليه الإسلام في أول مبادئه وبنوده ، ولا ريب أن العقل البشري مهما تَنكَّبَ عن الصراط المستقيم ، ومهما حاد عن طريق الحق ، ومهما عَتَا وطغى وبالغ في غروره وكبريائه ، فإنَّ الكون بما فيه من عجائب ، وما يحوي من انتظام وتقرير ، كل ذلك لفت ذلك العقل إلى أن هناك مرتبةً عليا تجتمع فيها صفات عليا ، لا بد أن تكون هذه المرتبة تتربع عليها ذات قدرة مكينة قادرة ، قد خلقت هذا الكون العظيم ، وأنزلت كل شيء بقدر معلوم ، تلك الذات هي ذات الله العزيز

الحكيم ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٣٨-٤٠] . وقال تعالى :

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ [الحج : ٥-٦] .

وهكذا نرى أن العقل البشري منذ أن خلقه الله عز وجل مُقِرٌّ بالربوبية معترف بوجود الله ، حتى الملحدين والكافرين والمشركين والمجوس والوثنيَّة وغيرهم ، كلهم لا يسعهم أمام هذا الكون العظيم ذي النظام الدقيق والمقاييس والمسافات المنتظمة ، مما لا يمكن أبداً أن يقال إنه خُلِق مصادفةً أو أَوجد نفسه بنفسه ، فلا يسعه إلا أن يعترف بأن لهذا الكون خالقاً مدبراً ، وإن اختلفت الأسماء فالمسميات واحدة ، قال الله تعالى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان : ٢٥] .

فالإسلام قد اعتمد على هذه العقيدة ، عقيدة وجود الله في تصحيحها من شوائبها ، فلقد شابت هذه العقيدةَ شوائبُ مختلفة من اعتقادِ شريكٍ لله ، واعتقاد المشركين بأحجار وأشجار أنها تضر وتنفع ، وأنها وسطاء بينهم وبين الله تعالى ، وهذا ما نحسه من أمة العرب في الجاهلية قبل الإسلام ، فإنهم كانوا يقولون وهم يطوفون بالبيت العتيق لبَّيك لا شريك إلا شريكاً هو لك ملكته وما ملك . وقال تعالى :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر : ٣] ، فأول مبدأ في نظام العقيدة التي جاء الإسلام ليمكنَ لها في الأرض ، هو أنه لا شريك مع الله ولا ندَّ ولا والد ولا ولد ، ولا زوجة ولا صاحبة ولا وسيط بين الله وعباده ، وقد ندَّد الله تعالى بالمشركين الذين يَدْعون مع الله إلهاً آخر بقوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾

[الحج : ٧٣-٧٤] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء : ٩٨-٩٩] .

إن الإسلام جاء بالتوحيد الخالص غير المشوب بالشرك أو بالوثنية وأوضارها .

فأي إله هذا يعبد من خلال الوثنية ، ثم أي إله هذا يتحد مع مخلوقاته أو يَحُلُّ فيها ، فأين الأُلوهية ؟ وأين العبودية ؟ ومن يا تُرَى يقبل هذا اللغو من القول ؟ الإسلام جاء ليبدِّد كل هذه الضلالات والأوهام ، ويرفع قدر الإنسان ويسخِّر له ما في السموات والأرض ، لينطلق ذلك الإنسان الشاكر لربه ، العارف لقدره، المعتز بكرامته ، لتحقيق الخير والسعادة للبشرية جمعاء ، وهكذا نجد الإسلام دين العقل والمنطق والتفكير السليم المبني على أسس سليمة وقواعد ثابتة ، يقرر في أول مبادئه أن لا إله إلا الله ، وأنه لو كان فيهما آلهة إلا اللهُ لَفسدتا ، وينهى عن اتباع الهوى بريد الضلال ، والهوى أصل الشرك ، والهوى أساس الكفر ، وقد ذمّ سبحانه وتعالى من اتبع هواه فقال تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف : ٢٨] . ولو أننا تتبعنا قصة الطاغوت في جزيرة العرب وفي غيرها ، لوجدنا أن تَحَكُّم الهوى الجامح وترك رسالات السماء ، هو السبب الوحيد في نبات تعاليم الشيطان ، فلقد ذكر المفسرون أن الأقوام الغابرة كان إذا مات فيهم رجل صالح دفنوه وجعلوا فوق قبره صورة له ، فصاروا يقبّلونها ويلمسونها ، وانتقل التقبيل واللمس

إلى التعظيم والتبجيل ، ثم انتقل الأمر إلى العكوف على الطواف بها ، ثم نحتوا لها تماثيل فصاروا يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فكانوا بذلك يعدُّون هذه التماثيل آلهة مصغرة ، تشفع لدى الإله الكبير الذي خلق السموات والأرض تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ثم فني ذلك الجيل ونشأ جيل جديد نسوا عقائد سلفهم ، ونسوا رب السموات والأرض ، وأصبحوا يعكفون على تلك التماثيل يعبدونها ويسجدون إليها ويطوفون حولها ، فما كانت تلك التماثيل المختلفة في الحقيقة إلا أسماء لأولئك الرجال الصالحين والأولياء المعتقدين ، صَيَّرهُم اتباع الهوى وأتباعهم أرباباً من دون الله .

ثم إن كتاب الله تعالى يبيِّن ذلك كله بوضوح ما بعده وضوح ، حيث يقرر في كل آية من آياته وكل سورة من سوره أن الشرك ظلم عظيم ، فيقول في ذلك الله تعالى شأنه على لسان سيِّدنا يوسف صلوات الله عليه مخاطباً أصحاب السجن : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٣٩ـ٤٠] .

فأصل الشرك في مفهوم الإسلام هو اتباع للشهوات واتباع للهوى ، واتباع للنفس الأمّارة بالسوء ، واتباع لشياطين الإنس والجن . وبكلمة موجزة : إنه اتباع للطاغوت وترك بل وإنكار لبدهيات العقل ، وإذلال لكرامة الإنسان .

ولكي نصوِّر معالم الشرك وعبادة مالا يضر ومالا ينفع ، حسْبُنا أن نقلب صفحات التاريخ ما قبل الإسلام ، فلقد كان المشركون كلما مروا بقوافلهم ذهاباً وإياباً ينزلون بوديان مخيفة ويعرِّسون بها ، فيقوم كبيرهم

فيقول : (أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه) . ثم يختارون حجراً أو مَدَراً أو طيناً أو خشباً فيتخذونه نصباً يعبدونه من دون الله ، فيطوفون به ويركعون له ويسجدون ، فإذا ذهبوا تركوه مكانه تبول عليه الكلاب ، فأي إلهٍ هذا يُحْيي ويميت ويضر وينفع ؟! أفهذه عقلية تعرف كرامتها وعزتها ، وتفهم حاضرها ومستقبلها ؟ وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى مخاطباً المشركين الضالين :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٩٨-١٠١] .

هذه هي الحلقة الأولى من حلقات نظام العقيدة في الإسلام ألا وهي وجود الله تعالى والاعتقاد بقدرته وعظمته ، حيث أَفحم بذلك الإسلام اعتقادات الوثنية والتثليث ، وأقام التوحيد دين إبراهيم وعيسى وموسى والأنبياء والمرسلين ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٩] .

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] .

٢ـ الحلقة الثانية : الإيمان بسيدنا محمد ﷺ :

لا يصير الكافر مسلماً أبداً فيدخل في هذا الدين القيّم ، فيكون له مالنا وعليه ما علينا ، حتى يشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ، أما لا إله إلاّ الله فقد تكلمنا عليها في الحلقة الأولىٰ ، وأما محمد رسول الله فهو موضوع بحثنا ومَدَارُ دراستنا ، ولعلّ بعض الناس يقول أَلاَ يكفي المسلم أن يشهد أن لا إله إلاّ الله وأن لا يشهد أن محمداً رسول الله ؟ وماذا ينفعه إذا شهد برسالة محمد ؟ فنقول له : أَمَّا شهادة لا إله إلا الله ،

فقد اشترك فيها صنفان من الناس اليهود والمسلمون ، فاليهود موحّدون والمجوس ثنوية ، فكل من أراد من المجوس والنصارى أن يقول لا إله إلاّ الله دخل إمّا مع اليهود أو المسلمين . ولكن اليهود مع قولهم لا إله إلاّ الله حَرَّفوا توراتهم وتلاعبوا بأحكامها ، وعبدوا عُزيراً من دون الله ، فهم في ذلك لا يستحقون أن يكونوا رسل هداية ، وما جاء القرآن إلاّ مصحِّحاً لمفاهيمهم ، مُعيداً لهم أصول دينهم ، ولكنْ لو أنهم رجعوا إلى دينهم وتَمَسَّكوا به تماماً ، فإنَّ دينهم خاص ببني إسرائيل وليس عاماً للبشرية ، فهو دين ناقص يحتاج إلى تكميل ، فجاءت رسالة الإسلام وَحَوَتْ كل ما تقدّمها من خير ، وزادت عليها زيادة كبيرة ، كما حوت كل خير في الدنيا ، وجمعت محاسن الشرائع السابقة ، وزادت على ذلك ما يقتضيه مجتمعها ووقتها ، فجاءت هذه الرسالة خاتمةً للرسالات ، كما أن سيدنا محمداً ﷺ وجب أن يكون خاتَماً للنبيين وسيداً عليهم ورئيساً لهم ، ولما كانت رسالته جامعة لمحاسن الشرائع السابقة ، كانت هذه الرسالة ختاماً لنزول الوحي ، وإشارةً ضمنية إلى أن العالَم قد انتهى من ذلك الدَّور دور الطفولة ، حيث كان مفتقراً إلى عناية سماوية تشريعية تَدُلُّه إلى سواء السبيل ، أمَّا وقد أخذت الأرض زخرفها وازَّينت وانتهى عهد الطفولة ، وبدأ العالَم عهدَ الشباب ، لم يعد بحاجة إلى تشريع حاصل لكل قوم من الأقوام ، بل أصبح بحاجة بعد أن اتصل الأقوام بعضُهم ببعض عن طريق التجارة والقوافل والملاحة والحروب والمعاهدات ، أصبح بحاجة إلى رسالة عامة شاملة ليس بعدها رسالة ناسخة ، لأن هذه الرسالة التي يتطلع إليها العالَم والبشرية ينبغي أن تكون رسالةً جامعة مرنة وسهلة ميسَّرة كاملة مكتملة ، تنتهي بها عناية الله عز وجل بدلالته للعالَم إلى طريق الخير والحق ، ليترك الله سبحانه العالَم يختار بنفسه الطريق السويّ من الطريق المظلم ، لهذا كله وجب أن تكون الرسالة الإسلامية

خاتمة للشرائع لا شريعة بعدها ، ومن هنا نعلم أن كلمة محمد رسول الله لها مغزى كبير ، من حيث كونها مفتاحاً لباب الدِّين يلج منه المرء إلى أعظم سعادة روحية هي سعادة الإيمان ، ويخرج من ظلمات الجاهلية وضلال الكفر وحمأة الرذيلة إلى نعيم الحق والخير والفضيلة ، فهي الدَّعامة الثانية من دعائم الدين ، على هاتين الدعامتين يصاحبهما تصديق في القلوب يقوم الإسلام دولة جبارة في قلب المسلم ، فليست هذه الكلمة بالشيء الهين ، فقد ورد في الخبر عن صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام « أنَّ لا إله إلاّ الله لا تنفع إلاّ ومعها محمد رسول الله » ونستطيع أن نوجز أهمية هذه الكلمة « محمد رسول الله » ومعانيها ومراميها ما نستطيع أن نوجزه وما وصلت إليه أفهامنا بأن نقول :

١ـ إنَّ محمداً رسول الله ﷺ هي أساس الدخول في هذا الدين ، من قال وشهد بها مصدِّقاً بقلبه ، ولم يشرك بالله شيئاً ، حَرُمَ دمه وعرضه وماله ، وصار له ما لنا وعليه ما علينا وسقطت عنه الجزية ، وأنكحناه نساءنا عن طريق الزواج .

٢ـ إنَّ هذه الكلمة تعني عن طريق المفهوم المخالف أنه لا يستحق أحد في الدنيا من لَدُنْ بُعث عليه الصلاة والسلام إلى يوم القيامة ، أن يكون أحد رسول الله إلاّ محمداً ، وكلُّ من يدعي كذباً وزوراً وبهتاناً أنه رسول الله ، فقد كفر بمحمد وحلَّ دمه أو يستتاب توبة نصوحاً ، وبأنه لا يستحق أحد في الدنيا أن يدعي أنه صاحب تشريع ، وأن الوحي ينزل عليه أي وحي التشريع إلاّ سيدنا محمداً ﷺ .

٣ـ إن هذه الكلمة تشير إلى أنه مَن آمن بها وصدَّقها فقد تم إسلامه ، وأصبح فرداً منا له مالنا وعليه ماعلينا ، كما أنها تشير إلى أن هذا النبي محمداً ﷺ قد حوى من الصفات أرفعَها ، ومن الأخلاق أكرمها ، فكان

استعداده لحمل الرسالة حملاً كاملاً ، وكان أهلاً لها مُهيَّئاً من عند الله باستعداد عظيم . زاد على ذلك مرناً متيناً قوياً عظيماً ، ينظر للكل ككل وينظر للجزء كبعض ، وينظر للكل جامعاً للجزء ، وينظر للأجزاء مؤلَّفة ككل ، وينظر من جميع النواحي ويُفَنِّد الصغير والكبير ، إنَّ عقلية سيدنا محمد عقلية متينة تنظِّم ولا ترتجل ، تفكِّر ولا تَسَرَّع ، تحيط بكل شيء ولا يفوتها شيء ، تستنتج وتستنبط ، تَضَع الأمور في مواضعها وتتحمل ما يناسب المقام ، فتقرر الرحمة عندما تجب الرحمة ، وتقرر الشدة عندما تجب القَسْوة ، تحلم في مواضع الحلم وتغضب في مواضع الغضب ، إنَّ هذه العقلية المرنة الصلبة القوية لا تضعف ولا تلين إلا حينما ينفع اللِّين دون خور ، ولا تقسو ولا تشتد إلاّ بمقدار من غير كبرياء ، بينها وبين الناس شَعْرَةٌ لو شدوها لم تُرْخها ، ولو أَرخَوْها شَدَّتها .

ولذلك بعد أن بينت التجارب أن جميع العباقرة والزعماء في العالَم ، تتجه عبقريتهم نحو ناحية واحدة ، وفي بقية النواحي هم أُناس عاديون ، إلا أن سيدنا محمداً ذو عقلية فذة في جميع النواحي ، ولهذا كان اصطفاؤه لتحمل الرسالة متَفَوّقاً ، ولو أن مليون رجل عادي اجتمعوا على أن يفعلوا ما فعل سيدنا محمد في ألف سنة لعجزوا ، ولقد قال علماء النفس : إذا أردت أن تعرف مدى عظمة شخص فانظر على مَن يُؤَثِّر .

ومن هنا قال سيدنا عيسى تلك الكلمة المأثورة : « من ثمارهم تعرفونهم » فما مَثَلُ القائد الفذ الموفق إلاّ كمثل شجرة مباركة في أرض طيبة تؤتي أُكُلَها من كل زوج بهيج كمّاً وكيفاً ، فإنْ كانت الشجرة مباركة والأرض غير طيبة ، قَلَّ الكمُّ وكثر الكيف ، وبالعكس إن كانت الأرض طيبة والشجرة غير مباركة كثر الكمّ وقلّ الكيف ، أمَّا سيدنا محمد ﷺ فيُقاس مدى عظمته بكثرة أتباعه وقوة شخصيتهم واستكمال كيفيتهم .

والحق أن أتباع سيدنا محمد ﷺ لو وضعت عقلياتهم منذ بعثته إلى يوم القيامة فجُمعت جمعاً ورُصّت رصّاً ثم وُضعت في الميزان وَوُضِع في الكفَّةِ الأخرى عظمة المواقف الجبارة ، لرجحت عظمة محمد صلوات الله عليه وسلامه . هذا ولن ننسى أن نتكلم على قلب سيدنا محمد ﷺ وروحه الجياشة المؤثرة الفياضة المليئة بالحكمة . إن أعظم المفكرين يستطيعون بقوة عارضتهم أن يؤثروا في مجموعة من الناس عن طريق الخطابة أو الكتابة أو الحديث ، إلاّ أن هذا التأثير بحكم محدودية تأثير العقل ، يكون كمّاً تابعاً لهذه المحدودية ، فالتأثير من ناحية الكم يكون في مجموعة من الناس قليلين ، يحتاجون لإقناعهم إلى وقت طويل ، ثم إن هذا التأثير يزول ويضمحل بسبب شبهة تعرض لذلك الدليل ، فيقع في حمأة الاحتمال فيسقط به الاستدلال ، كل ذلك بسبب الاقتصار على العقل ، أما الناحية الجذابة الروحية في سيدنا محمد ، فقد ضاعفت تأثير العقل ألوف المرات ، مما سهّل عَمَلَ النبي الكريم في أن يؤثِّر في الجماهير الكثيرة وقت حياته وبعد وفاته ، فإلى يومنا هذا لا تزال كلماته تؤثر في العالَمين ، إنَّ هذا ليس إلا دليلاً على أنه اجتمع في هذا النبي العظيم ، أي في شخصيته الفذّة ، عنصران هامان :

ـ **العنصر الأول** : التفكير السليم وقوة الإقناع ، عاضده معرفته بنفوس المخاطبين وأساليب التحدُّث .

ـ **والعنصر الثاني** : هو عنصر الجاذبية الروحية المؤثرة التي جعلت تأثير العقل يتضاعف في الناس على اختلاف طبقاتهم ، ويسرع بنتائج الدعوة فلا تحتاج حينئذ في نجاحها إلا إلى أمدٍ قصيرٍ ليتم بعد ذلك النصر الأبلج في أمدٍ ليس له حساب في عمر الزمن .

* * *

الرسالات السماويَّة

قال تعالى : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ [يس : ٢٠ـ٢٥] .

الإنسان حيث يكون طفلاً في ميعة الصبا وبراءة الطفولة ، لابد له من مرشد موجِّه وأَب رؤوف يحنو عليه ويهديه إلى أساليب الحياة الصحيحة ، ويعلمه آداب المجتمع الذي لايعرف عنه هذا الطفل إلا القليل ، فهو في هذه المرحلة بأمسِّ الحاجة إلى من يأخذ بيده ، فيدلّه على الصراط السوي ، ويهديه إلى الطريق المستقيم ، ويذكِّره بواجباته ويعلِّمه كيف يعيش في هذه الحياة سعيداً موفَّقاً مكرماً ، ولئن تُرِك هذا الطفل وشأنه ، فكيف يستطيع أن يفهم بنفسه ، وأن يدرك بعقله الصغير ، وأن يفهم بتجاربه القليلة ، أقول كيف يستطيع أن يدرك ذلك المجتمع العظيم الكبير ، ويعرف كيف يعيش فيه ويتصرف في أعماله برويَّة وحكمة ، إذا لم يكن له مرشد وموجه ومربٍّ روحيٌّ يُفْهِمُه ويعلمه كيف يجب عليه أن يشكر لمن أنعم عليه وأن يحسن لمن أساء إليه ، وأن يحلم على من غضب عليه ، وأن يعاشر الناس بالرفق واللين ، وأن يعرف لكل

إنسان حقه ، فيعرف لذوي الهيئات ويحترمهم ويعرف لذوي العقول ويُجلُّهم ، ويدرك عظمة العظماء فيعظِّمُهم ، كيف يستطيع أن يعرف ذلك كلَّه بلا مربٍّ ولا مرشد ولا أب ولا أُم ، إنه حينئذ سيكون وبالاً على المجتمع الذي يعيش فيه ، إنْ لم يتداركه الله برحمته وفضله ، وسيكون من سِقْطِ المتاع عالة على الناس ، عالة على نفسه مطروداً محتقراً. . . هذه صورة مصغرة للعالَم الذي يعيش في الفوضى والانحلال الخلقي والتدهور النفسي ، حينما يمنع الله عز وجل عنه الأنبياء والمرسلين ويتركه هَمَلاً كقطيع الغنم في الليلة الممطرة الظلماء .

إنَّ من حكمة الله سبحانه وتعالى أن أرسل للناس الرسل والنبيين مبشِّرين ومنذرين ، ومبلِّغين رسالات ربهم آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر مكتسين مكارم الأخلاق ، ليهدوا الناس من ضلالاتهم وينقذوهم من بحر الظلام والفساد ويرشدوهم إلى الله عز وجلّ بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويتحملون في ذلك كل عناء ومشقة وكل تعب ونصب في سبيل إرشاد الناس وهدايتهم ، ذلك كله لكيلا يكون للناس على الله حُجّةٌ بعد الرسل .

والعالم حيث كان في نعومة أظفاره وعهود طفولته يتلهَّف إلى هذه الرسالات تلهُّف الأرض العطشى إلى وابل السماء ، فنزلت الرِّسالات متتابعة مصدِّقة بما بين يديها حتى آن أن يخرج العالَم من طور الطفولة إلى طور الشباب والكهولة ، وأصبح بحاجة إلى أن تُلْقَى إليه جميع تلك المواعظ المتفرقة والنبوات على اختلافها دفعة واحدة ، رسالة عامة كاملة مكملة تامة من جميع وجوهها ، مَثَلُه في ذلك كَمَثَلِ الطفل الصغير ، حيث لا يستطيع وهو في عهد طفولته الغضة أن يستقبل نصائح متوالية ومواعظ متجمعة ، حيث يمل منها فكره ويسأم من جرائها عقله ، وإنما شأنه في ذلك أن تُلْقَى إليه النصيحة فَيْنةً بعد فَيْنةً وتارة إثْر أخرى ، فذلك

أجدر به أن يتعلَّمها ويتقبلها ، أما إذا بلغ الرشد وصار في السن التي تؤهله لأن يفارق دوحة الأسرة التي انبثق عنها ، إلى سكن يقيم فيه أسرة جديدة ، ويعارك الحياة معاركة فعلية ، ويشهد الصراع بنفسه ، ألا ترى أيها الأخ المؤمن مثل هذا الشاب المقبل على حياة جديدة أنه بحاجة إلى أن تجمع له جميع هذه النصائح والمواعظ لتلقى إليه دفعة واحدة من مربيه ومرشده ، ثم هو بعد غير محتاج إلى أن تُكَرَّر عليه ، حيث ينبغي أن يتصرف في الأمور بنفسه ، كذلك رسالة محمد ﷺ هي آخر رسالة كاملة مكمِّلة ناسخة لما قبلها ، موجِّهة للعالَم إلى الوجهة الصحيحة من الخُلُق والعقل والدِّين .

* * *

خصائص العقيدة الإسلامية وميزاتها

جرت العادة عند أكثر المفكِّرين المسلمين حين يدافعون عن الإسلام وينافحون عنه ، أن يقدِّموا الإسلام للناس على أنه مُتَّهَم في قفص الاتِّهام ، والخصوم هم الحكام ، وهؤلاء المسلمون يقومون بتبرئة هذا المُتَّهم المسكين مما يُظَنُّ أنه قد اقترف جرماً شائناً وهو منه بريء ، ويقفون هذا الموقف في استخذاء وصغار ، كأن هذا الدِّين مجرم وَكَّلَهم بالدفاع عنه ، وهم يثبتون عدم صحة الجرم ، فيقولون مثلاً : « إنه ليس هنالك ظلم في الإسلام ، وليس هنالك شيء يخالف عن المنطق والعقل » كأنَّ المتبادر للذهن حين نلفظ كلمة الإسلام أنه يحوي الظلم والهوان ، ونحن واجبنا أن نخرج هذه السُّبَّة من أفكار الناس ، إذاً هو موقف الدفاع بعينه ، وهي الهزيمة بأُم عينها ، ونحن واجبنا كمسلمين حين ننظر إلى ما حولنا من جاهليات ضاربة تخالف الإسلام ، نجد أنها هي الجاهلية العنيفة القوية العاتية جاهلية القرن العشرين ، وهي أعتى مما قبلها ، بل هي أعتى جاهلية عرفتها البشرية ، ذلك لأن الجاهليات الأولى جاهليات ساذجة ، وهذه جاهلية مركَّبة ، لها سُور متين مرصَّع ظاهره بالنور والحضارة والمدنية الزائفة ، ودخله الطاغوت الأكبر طاغوت المدنية الحديثة ، فهو من ظاهره رحمة وباطنه من قِبَلِهِ عذاب .

أقول : حينما ننظر إلى هاته الجاهليات التي طغت وبغت وامتدت

واسبطَرَّت ، ثم نحاول أن نقف موقف الدفاع ، فهو هزيمة من أول الطريق ، إنه لا يصح لنا حين نتكلم على الإسلام وموقفه من الجاهليات المنتشرة فيما حولنا ، إلا أن نفنِّد للناس ما تحويه هذه الحضارة الحديثة من بغي وظلم وفساد في التصور ، وفساد في الأخلاق وفساد في السلوك ، كلٌّ ذلك نشأ عن ترك قواعد الإسلام وعدالته واللجوء للعقل البشري الذي قد يخطىء وقد يصيب ، وأما الإسلام فهو ينظر إلى الكون والحياة والمبدأ والمصير والإنسان والأفلاك والنور والحرور ، نظرات ثابتة كَشَفَ الزمانُ عن صحتها ، حتى إنَّ الإسلام لينبئنا بما سيحدث بعد قرون عديدة ، فإذا بالواقع يؤيد ما ذهب إليه الإسلام ، ذلكم وضع الله ودينه الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيلٌ من عزيز حميد ، فخصائص العقيدة الإسلامية واضحة تمام الوضوح من ثنايا آيات القرآن والأحاديث النبوية ، وهي مستقلة تمام الاستقلال عن غيرها من العقائد والفلسفات السماوية والأرضية وهي كثيرة متشعبة :

١ـ منها أنها واضحة تمام الوضوح ، ظاهرة جليلة ليس فيها لَبْسٌ ولا تعقيد ولا خروج عن مقتضى قواعد العقل ولا إبهام ولا ارتباك أو اضطراب . فالإسلام عقيدة يستطيع كل فرد أن يفهمها ويهضمها ويستوعبها لوضوحها وبُعدها عن الغموض والتعقيد .

٢ـ ومنها أنها مستقلة عن غيرها فليس لها شَبَهٌ بغيرها من الديانات والعقائد ، إلا فيما جرت سنة الله تعالى به أن يوجد عليها كلمة الرسالات السماوية من الأمور الخمسة الضرورية وهي : (حفظ الدين والنفس والعرض والعقل والمال) فالعقيدة الإسلامية ناسخ كمالُها لِنُقصان غيرها ، مستقلة بذاتها عما سواها ، ذات طابع خاص وشخصية فذة .

٣ـ والعقيدة الإسلامية تتميز عن غيرها بأنها استوعبت بين ثناياها

أسس العقيدة الصحيحة ، فجاءت جامعة شاملة غير مضطرة لأناس يجبرون نقصها ، أو لرجال يكملون ويستدركون ما فاتها ، فهي ككل عقيدة كاملة تامة قد وضعت الموازين القسط لكل ما يخطر في ذهن الإنسان ، ووضعت الحل الصحيح لمشكلات الحياة .

وهكذا نجد كل ديانة جاءت إلى الأرض ، لابد أن ينقصها بحوث ضرورية لازمة ، أما الإسلام فعقيدة كاملة بحثت كل شيء وانتهت إلى النتائج العادلة المعقولة في كل مسألة أثارتها للبحث ، فالعقيدة الإسلامية هي قمة الكمال ، بحثت في الألوهية والنبوات والدنيا والبرزخ والمغيَّبات كالآخرة وعالم الجن والعوالم الأخرى ، وتكلَّمت على الإنسان والمصير ، والخير والشر والقضاء والقَدَر ، فلم تترك مجالاً لأيّ أفكار غريبة دخيلة على الإسلام .

٤ـ والعقيدة الإسلامية قوية راسخة مُؤَيَّدة بالبرهان والحُجج ، لاتَفِرُّ من الحقيقة ، ولا تهرب من المناقشة ، ولا تفرض سلطانها على النفوس فرضاً ، وإنما تناقش العقل ، وتحاكم المنطق ، وتقنع الخصم بما تحويه من ثقة بنفسها ، وقوة في برهانها ، بل يكون موقفها دائماً أن تطلب إلى الناس النظر وعدم تقبل الرأي عن تقليد أعمى ، ولقد ذم الإسلام المشركين حيث كانوا يهملون عقولهم ، ولا يفكرون في آلاء الله تعالى ، بل يتقبلون رأي كل ناعق ، ويعكفون على كل ما وجدوا عليه آباءهم ، فيقول سبحانه وتعالى ذامّاً لهم :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف : ٢٣] .

﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة : ١٧٠] .

وأمَرَ سبحانه وتعالى بالتفكير وإعمال العقل ، فقال سبحانه :

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية : ١٧ـ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [النازعات : ٢٧-٣٣] .

وقال سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر : ٢١] .

وعدَّد سبحانه آياته ليتفكر فيها أُولو الألباب فيؤمنوا ، فقال تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٠-٢٥] .

فانظر أيها الأخ اللبيب هداك الله إلى ما في هذه الآيات من حَضٍّ على التفكر ، وتنبيه للقلوب ، وتقريع للنفوس المريضة ، وحضٍّ على إعمال العقل ، وعدم تقبل الآراء على علاّتها ، ولما كان الإسلام في ذاته حقاً وهو مطمئن إلى النصر المبين في ميدان الجدل والنقاش ، أطنب في عَرْض الأدلة العقلية ، وقال للناس : « أنا لا أطلب إليكم أن تؤمنوا بالإسلام عن تقليد أعمى فهذا فعل من لا عقل له ، وإني أربأُ بكم عن أن تنصرفوا عن أبصاركم وأسماعكم وألبابكم وتكونوا في زمرة من لا يعقل » فالإسلام من هذه الوجهة ذو طبيعة عقلانية راسخة لا يخشى الحق ، ولا يتجانب لإثم ولا يميل مع هوى ولا يفرض نفسه ، فهذه الميزة من أهم مَيِّزات الإسلام وخصائصه ، تعطيه نصاعة وقوة في مجابهة الخصوم ،

ودحض شبهاتهم ودفع باطلهم بحق الإسلام وحججه وبراهينه ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

٥- ثم إن العقيدة الإسلامية تُفْصِح عن نفسها بدون غموض ولا تقييد ، بِأسلوب هو غاية في الوضوح والبيان ، فالقرآن الكريم حين يتحدث عن العقيدة ، يسيل عذوبةً ويَفيض سَلاَسَةً . هذا والعقيدة الإسلامية أذاقت متبعيها حلاوة الإيمان ، وساقتهم إلى لذة المناجاة مما انفرد به الإسلام ولم يشاركه في ذلك دين قط .

فالعقيدة الإسلامية جوهر أُلبس ثوباً شفافاً من الألفاظ العذبة الرقيقة الناعمة ، بحيث يَفهمها كل من يقرأ ، ويحس بين سطورها عقلية مُتَميِّزَةً ومنطلقاً سليماً وبلاغة وفصاحة ، قَصُرت عن تقليدها ألسنة الفصحاء ، وتقطعت دونها رقاب الأدباء والبلغاء ، تلمس فيها روحاً أَخَّاذة ، وسحراً حلالاً ، وتشعر فيها عند تلاوتها بلذة صغرت أمامها لذاذات الدنيا ، وذابت أمامها لذاذات الآخرة ، فاسمع إن شئت هذا القيثار الإلهي العذب في قوله عز وجلّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج : ٥-٧] .

وقال تعالى مقرِّراً الألوهية والوحدانية في أسلوب يُنطِق الجماد ، ويُفحم الخصم ويأخذ بالألباب : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ

ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان : ٢٩ـ٣١] . فهل تجد مثل هذا الأسلوب الناعم السلسال في الكتب الأخرى ؟

هذا ما امتازت به العقيدة الإسلامية واختصَّتْ به ، وهو من أهم خصائصها ذلك هو الوضوح في المعنى ، والسهولة في اللفظ وعدم التعقيد والتعاظل ، مما يكسب قوة فوق قوة وأيْداً بعد أَيْد ، ورسوخاً فوق رسوخ وجمالاً وإبداعاً إثْر إبداع .

٦ـ ومن خصائص العقيدة الإسلامية التي لم تشاركها في ذلك عقيدة : التوحيدُ وهو من أسس العقيدة ومما أكْسَبَها خلوداً ما بعده خلود ، فأقرب ما يتصوره العقل البشري في الألوهية هو التوحيد . والتوحيد دين الفطرة ذلك الدين القيم ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ، وأبسط ما يتصوره عقل المرء أن يكون الله وحده لا شريك له ، هو خالق الكون ومدبّر الأمر سبحانه وتعالى لا ولد ولا زوجة ولا والد ولا شريك له ، تبارك اسمه في السماء وتقدّس أمره في الأرض ، فأين هذه العقيدة البسيطة الواضحة السهلة الهينة اللينة الممتعة من فلسفات الإغريق في تعدد الآلهة وأقانيم البوذيين ، حيث إنهم ومن لَفَّ لفَّهم ، هم أنفسهم لا يستطيعون أن يعللوا مبادىء دينهم وفلسفة لاهوتهم ، لأنه فُرض عليهم . أما الإسلام عقيدةً فهو صَفَاة أصلها راسخ ، وصخرة تقف أمام الحجج والشبهات .

٧ـ ومن أهم خصائص العقيدة الإسلامية أنها عقيدة بسيطة غير معقدة ولا مركّبة ، فهي وإنْ كانت بسيطة ، إلا أنها زاخرة بالمعاني القوية التي تجعل في نفس المؤمن بها العزة والكرامة وترفع رأسه عالياً ، فأول

أركانها الإيمان بالله تعالى ، وثاني أركانها الرضا بالإسلام ديناً ، وثالث أركانها الرضا بسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً ، فلقد قال عليه الصلاة والسلام : « ذاق طَعْمَ الإيمان من رضي بالله تعالى ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً » فهي إذاً عقيدة عِزَّةٍ لا مواربة فيها ولا مداجاة ، فلا تقبل العقيدة الإسلامية حلاً وسطاً بين الكفر وبين الإيمان ، فإمّا مؤمن وإما كافر وليس بعد الحق إلاّ الضلال ، أما أن يؤمن الإنسان بالعقيدة ولا يكون تحت لوائها ولا يستظل بظلها ، فذلك نفاق في الإسلام ، فإذا كان المؤمن معتقداً الحق داعياً إليه عاملاً بما يمليه عليه الإسلام ، فإنه حينئذٍ يشعر بالعزة والكرامة ، فلا يرضى الذلَّ والهوانَ ولا يرضى عن عقيدته بديلاً ، فالله تعالى يقول : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون : ٨] ، فهو ينظر لعقيدته أنها الحق وما عداها أنه الباطل ، ولو أن الباطل كان قوياً ومزخرفاً بشتى الأسماء مُمَوَّهاً عن أعين الناس تحت اسم التقدّم والتنوّر أو تحت نظرية فلسفية فهو هو الباطل ، ولا يصير بالزخرف حقاً أبداً ، ولا يكون ممدوحاً عند ذوي العقول ، وهو يعتقد أن الحق ولوكان مهضوماً ومظلوماً من أتباعه ليس عليه مسحة من الزخرف والطِّلاء هو هو الحق ، ولا يكون باطلاً بذلك أبداً ، فينظر المؤمن بالعقيدة الإسلامية إلى ما معه من الحق أنه أغلى من كل شيء في الوجود ، وإلى ما مع غيره من الباطل والضلال أنه يجب عليه أن ينقذه من هذه الغواية ويدلّه على الحق ، فهو معه كنز ثمين لا يحتاج في ذلك إلى أن يكون إمَّعَة أو ذَنَباً يأكل من فتات الفلسفات المبنية على الباطل ، بل ينظر إليها على أنها ضلالات ، فهو ينظر بنور الحق وباستعلاء الإيمان . هذه أبرز خصائص العقيدة الإسلامية أنها عقيدة راسخة قوية مفعمة بالعزة والكرامة ، مليئة بعناصر الاندفاع وراء الحق المطلق ومصارعة الباطل وإزهاقه ، مما لا يوجد في عقيدة أخرى

أبداً . وبذلك تتوضح خصائص العقيدة الإسلامية للملأ ليعلم الناس أنه الحق وأن ما عداه الباطل ، وأنه النور وأن ما عداه الظلام ، وأنه الحضارة وأن ما عداه الجاهلية ، وأنه التقدّم وأن ما عداه التأخر ، وأنه القوة وأن ما عداه الضعف ، وليس بعد الحق إلاّ الضلال .

* * *

الفصل الثاني

أبرز القضايا الفكرية الكبرى في الإسلام

الإسلام رسالة إصلاحية

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ [الحج : ٧٨] .

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾

[المائدة : ٣] .

لا يختلف اثنان أن العرب والعالم كانا قبل الإسلام في فوضى عظيمة ، قد عَمَّت وطغت حتى هددت البشرية بالفناء ، لِمَا انتشر من فساد في الأخلاق ، وانحلال في المفاهيم ، وتطاحن في الحروب ، ولاسيما العرَب في جزيرتهم ، فلقد كانوا أذل أمة وأضعفها وأقلها ، حيث كان الفرس والروم من الشرق والشِّمال والغرب ، قد أحدقوا بهم ، والحبشة وما فيها يريدون أن يَنقضُّوا عليهم ، فكان أن أعملوا بهم براثنهم ، والعرب مع ذلك ساهون لاهون ، قد فتكت فيهم العصبية والقبلية ، وخيّم عليهم الجهل والمرض والجوع والفقر ، فشا فيهم الخمر والميسر والزنى والربا وأكل الحرام ووأد البنات وعبادة الأصنام والأوثان ، فلا دين يردعهم ، ولا آداب تزجرهم ، ولا رأي يؤلف بينهم ، فتداعت عليهم الأمم كما تداعت الأكلةُ إلى قصعتها ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن ننكر أن أمة العرب أمة فيها خصال من الأخلاق الحميدة وأخرى ذميمة ، ولكن هم خير أمة تستطيع أن تتقبل المفاهيم الصحيحة ، لأنها حوت من فضائل الخصال ما خَوَّلها ذلك ، فهي كالجوهرة الثمينة قد

لطخها التراب والأقذار ، وغَشَّاها الرّان فغطى على بريقها وشعاعها ، فكانت وظيفة الإسلام هي مسح هذا الران وإظهار تلك الجوهرة على ما هي عليه من البريق ، ولذلك كانت حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل الإسلامَ ونبي الإِسلام محمداً ﷺ يخرجان من هذه الأمة المغلوبة على أمرها ، على هذا الضوء نستطيع أن نفهم رسالة الإسلام للعرب خاصة وللعالم عامة ، إذ أن العالم أيضاً لم يكن بمنجاة مما وقع به العرب ، وإنْ كان بعض الدول أقوى من بعض ، فهذه قوة وهمية تتخللها جراثيم الفناء لكل من الدولتين المتقاتلتين الفرس والروم ، فكان ذلك نذير حرب تُدَمّر الأخضر واليابس لا يدري مداها إلا الله ، فكان على الإسلام وظيفة ملقاة على عاتقه ؛ هي إزاحة هذا الحمل الثقيل عن العرب ، وتأليف هذه القبائل المتفرقة المتشتتة المتباغضة ليخرج من هذا التشتت والانحلال خير أمة أخرجت للناس ، ولينزع العداوة والبغضاء من قلوبهم ، وليتبدل بها جوهر المحبة والود ، ثم ليؤلف منهم جيشاً عرمرماً حاملاً للعقيدة البناءة القوية ، ليدك به دولة الفرس ودولة الروم ، وليضرب الظلم والطغيان والجور والعدوان والفساد الاجتماعي بهذه القوة الساحقة التي لا يقف أمامها أحد ، لا بعددها وعُددها ولكن بإيمانها وقوة يقينها وعقيدتها الصامدة ، فأرسل هذه الأمة تحمل بيدها السيف والسنان ، وباليد الأخرى المصحف والقرآن ، فمن آمن بالحسنى كان أخانا في الدِّين له مالنا وعليه ما علينا ، وإن بقي على دينه أعطى الجزية ، وله أيضاً مالنا وعليه ما علينا ، وما ذلك إلا لحمايته من كيد الطامعين ، وينضم تحت لواء العدل ، ومن أبى إلا القتال فهمْ ظلموا أنفسهم ﴿ وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : ١١٨] ، فأقام الإسلام بذلك دولة ما عُرف مثلها في التاريخ في سَعتها وعظمتها ، وتحققت أمنية الرسول الكريم محمد ﷺ في أن يسود العالم كلَّه الإخاءُ والسلام ، ويتوَّج بتاج العدالة

والمحبة ، وترفرف عليه راية الإخاء والمساواة .

هذه رسالة الإسلام وهذه وظيفته ، فهو رسالة إصلاحية قبل كل شيء ، جاء من لدُن محمد ﷺ عن ربه عز وجل رسالةً إلهية وحكمةً ربانية ، لينقذ العرب والعالَم من براثن الجهل والطغيان ، ويعطيَ لكل ذي حق حقه ، ويصلح الأُمَّة من كل النواحي الاجتماعية والدينية والسياسية والثقافية ، هكذا نفهم الإسلام وهكذا يجب أن نفهم (عقيدةٌ وجهاد ، أخلاق وتشريع ، دين ودولة) .

ولقد أرسى الإسلام قواعد هذه الرسالة الإصلاحية بأن جعل أول أساس لها هي عبادة الله وحده لا شريك له ، والتصديق برسالة محمد ﷺ ، والدليل على ذلك ظاهر ظهور الشمس في وضح النهار ، وهو أن الكون لابد له من خالق ، كما أن كل مصنوع لابد له من صانع ، فالله سبحانه هو الخالق ، ومحمد جاء بالقرآن الكريم أَعجز به العرب والعجم وهو أُمِّيٌّ كما ثبت ثبوتاً يقيناً ، لا يقرأ ولا يكتب ونحن مع كتابتنا وقراءتنا ودراستنا لا نستطيع أن نحفظ القرآن الكريم حفظاً فقط إلا بشق الأنفس ، أضف إلى ذلك إعجازه وفصاحته وبلاغته تلك التي لا تُضارَع ولا تشابه ، فما من شكٍّ أبداً أن سيدنا محمداً رسول من الله لإصلاح البشرية .

من هذا المنطلق تبدأ الدعوة الإسلامية عملها ، فقد جعل الإسلام الإيمان شطراً ، والشطر الثاني إنما هو العمل والجهاد ، فدعوة بلا جهاد لا قيمة لها ، ومبدأ بلا قوة لا يؤبه له ، فما من آية في كتاب الله العزيز ـ وهو دستور الأمة الإسلامية ـ الذي لا تخالَف نصوصه أبداً ـ فيها ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ـ إلا ومعها ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ . فالإيمان مقرون بالعمل دائماً وأبداً .

ثم الإسلام أخلاق ولكن لا يكفي ، فالتشريع واجب لأن الإسلام ليس دين قوم خواص لا يتعداهم ، بل هو دين الأرض فلا بدّ من تشريع يكفل للبشر سعادة الدنيا والآخرة .

ثم الإسلام دين عقيدة ومبدأ وفكرة قدسية عليا ، ولكن الله فرض ظهوره في الأرض لِيُعمل به وليكون مفروضاً من قبل سلطة أرضية بعد فرضه من قبل سلطة سماوية ، فالإنسان في الأرض خليفة لرب العالمين ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] وهكذا نجد الإسلام بكل هذه المفاهيم ، لابد له من ضابط يضبطه ومشعل تصدر منه هذه الأشعة النيِّرة والأضواء القدسية ، وما ذلك إلا القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين ﷺ .

* * *

حقيقة الفقه وربَّانيَّة الفُقَهاءِ الأوَّلين

وردت نصوص القرآن والسنّة تَتْرى في فضل الفقه وعلوِّ درجته ، وكذلكَ في كلام الصحابة والتابعين وتابعيهم من القرون الثلاثة الأولى المشهودِ لها بالخيرية ، رضوان الله عليهم ، في مكانةِ الفقه من الدين ، فمن ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

وجاء الحديث الصحيح عن معاوية رضي الله عنه مرفوعاً : « ومن يردِ الله به خيراً يُفقِّهه في الدين » ، وفي رواية أخرى (وَيُلهِمه رُشْدَه) ، ومثل ذلك عن أنس رَضِي اللهُ عَنْهُ مرفوعاً ، وعلى ذلك جرى عمل الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وقد شهد رسول الله صلوات الله عليه لابن مسعود بالفقه في الدين ، فقال فيه : « أفقهكم ابن أم عبد » وقال في حق معاذ بن جبل : (أعلمكم بالحلال والحرام معاذ) ، وقال في حق زيد : « أفرضكم زيد » ودعا لابن عباس فقال : « اللّهم فقِّهْه في الدين وعلِّمْه التأويل » رَضِي اللهُ عَنْهُم وأرضاهم . وكان عمر رَضِي اللهُ عَنْهُ زمن خلافته الراشدة ، يستشير ابن عباس لفقهه ويأخذ برأيه ، ويعتدُّ كلَّ الاعتداد بابن مسعود وبِفقهه ، ويقول فيه : « عندكم صاحب النعلين والوساد ابن أم عبد وتأتون إليَّ ؟ » . أما الإمام علي رضي الله عنه وكرّم وجهه فكان من فقهاء الصحابة ، ومن الذين انتهت إليهم الفتيا ، لاسيما في الفرائض

والمواريث ، حتى إنه حلَّ مسألة فَرَضيّة على المنبر وهو يخطب الجمعة ، فَسَرد الجواب على ذات السَّجْعة ، فسميت المسألةَ المنبرية ، ومن المعلوم أن النبيَّ صلوات الله عليه كان يقدِّم فقهاء الصحابة ، ويستشيرهم ويعتد برأيهم فيما لم يُوحَ إليه ، ويقدِّمهم في الإمامة على الناس والإمارة حال غيابه ، وكانوا يُسَمَّوْن آنئذٍ القُرَّاء لفقههم ، وعلى ذلك مشى أمر الخلفاء الراشدين المهديين من بعده .

وفي زمان خلافة علي رَضِي اللهُ عَنْهُ كان يمتحن بنفسه القُصَّاص في المساجد ، فإذا لم يكن القاصُّ فقيهاً أخرجه أمير المؤمنين من المسجد ، بموجب السياسة الشرعية التي يملكها الإمام الأعظم على الأمة .

وقد زجر عطاء بن أبي رباح التابعيُّ الجليلُ عبد الملك بن مروان الخليفة بعد الصلاة ، لأنه سأله في وقت الدعاء والتسبيح ، فلم يجرؤ على الرد عليه لفقهه .

وزمنَ الإمام أبي حنيفة رحمه الله ورضي عنه ، كَثُر الجدل والفِرَقُ وعلم الكلام ، وكان أبو حنيفة من قَبْلُ متكلماً نَظَّاراً ، ثم انقلب إلى الحلال والحرام ، وقال : « طلبتُ علم النحو فوجدتُ آخره ـ أي ثمرة التخصُّص فيه ـ تعليمَ الصبيان ، وطلبتُ علم الكلام فوجدتُ آخرَه أن يقال عنك كافر أو فاسق ، وطلبتُ الفقه فوجدتُه سيِّدَ العلوم كلِّها فلزمتُه » .

حقيقة الفقه عند الأئمة المتقدِّمين :

سأل فرقدٌ السَّنجيُّ يوماً شيخَه الحسن البصريَّ : « إن الفقهاء يقولون غير ما تقول ؟ » فقال له الحسن رحمه الله ورضي عنه : « ويلك أو ويحك يا فرقد ، وهل رأيتَ فقيهاً قطُّ بعينك ؟ إنما الفقيه هو المُعْرِض عن الدنيا المقبلُ على الآخرة الراغب فيما عند الله عز وجل » .

والفقه لغةً : الفهم مطلقاً ، يُقال فَقِهَ يَفْقَه كعلِم يعلَم : أي فَهِم سواءٌ أكان فهمه كاملاً أو ناقصاً ، ويقالُ : فَقُه الرجل يَفْقُه مثل كرُم يكرُم أي : صار الفقه له سجيةً ، وتفقَّه الرجل تفقُّهاً وفقهاً وفقاهةً أي : تعاطَى الفقه .

وعَرَّف الفِقهَ الإمامُ أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي صاحب المذهب رحمه الله بأنه (معرفةُ النفس ما لها وما عليها) .

والمعرفة : هي إدراك الجزئيات عن دليل ، والمراد بها سببها ، وهو المَلَكَة الحاصلة من تتبُّع القواعد مرةً بعد أخرى .

وهو تعريف عامٌّ يشمل العلوم الإسلامية من اعتقاديات ووجدانيات ومعاملات ، فزاد الحنفية بعد ذلك كلمة (عملاً) فصار التعريف : (معرفة النفس ما لها وما عليها عملاً) فخرج مثل الأحكام الاعتقادية والوجدانية .

ثم جاء الإمام الشافعي رحمه الله ورضي عنه فعرَّف الفقهَ ، فقال : « هو العلْم بالأحكام الشرعية المكتَسَب من أدلتها التفصيلية » .

قلت : وهو تعريف تخصُّصي بحتٌ ليس مدارَ بحثنا هنا .

والذي يَهُمّني هنا هو أن القرن الأول الهجري ونصف القرن الثاني ، بل ثلثاه ، مَضَيا والفقه عندهم هو : (معرفة النفس ما لها وما عليها) .

وجمعاً بين الأقوال والاجتهادات السابقة أقول :

إن الفقه فقهان :

١ـ فقه أكبر : وهو هذا المعنى العام الشامل الذي يشمل العقائد الصحيحة والأحكام الشرعية ، والأخلاق والسلوك معاً .

٢ـ وفقه كبير : وهو ذاك المعنى التخصصي الضيِّق الذي نصَّ عليه

الإمام الشافعي رحمه الله ، وارتضاه الأصوليون من بعده ، حتى إن الفقهاء المتأخرين قلَّصوا من حجمه فقالوا : « هو العلم بالأحكام الشرعية » فقط ، فلم يعد الدليل وهو المَدْرَك ومعرفته من الفقه عند المتأخرين من الفقهاء ، وهذا أمر غريب .

الفقه هو معرفة النفس : فمن عرف نفسه عرف ربه ، أي من عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغنى . ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالعلم وهكذا. . .

ومعرفة ما للنفس ، أي من الحقوق ، كالتعليم والتزكية والنصح لها والتربية . قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٧ـ١٠] .

ومعرفة ما عليها من الواجبات أمام الله عز وجل بالعبودية والعبادة ، وأمام الناس بالعدل ثم بالإحسان ، وأمام نفسها بالمجاهدة والمخالفة فيما يُرضي الله عز وجل .

هذا هو جوهر الفقه في مفهوم السلف الصالح ، وهذا هو تصوُّرهم إياه بلا زيادة ولا نقصان ، وهذه هي الحقيقة المجرَّدة للفقه في الإسلام لديهم ، وعلى هذا فيدخل الفقه الكبير في الفقه الأكبر دخولَ الجزء في الكل .

فما كانوا يمنحون الإنسان رتبة الفقاهة ، إلا إذا تحقق بهذا المعنى من العلم والعمل والورع والصيانة وحفظِ محارم الله ، والوقوف عند حدوده ، فكان علمهُ حُجَّةً له لا عليه ، لذلك كان الفقيه هو القدوة الحسنة للناس في الالتزام بالدين ، ثم في عَرْضِه بأقواله وأفعاله وأحواله ، فما كان هنالك في هذه الحقبة فرق كبير أو واضح بين الفقهاء والسالكين والزاهدين ، بل هذه كتب التراجم كالحلية لأبي نُعيم والرسالة للقشيري

وأضرابها ، تضع الفقهاءَ من السلف الصالح رعيلِ القرون الثلاثة في قمة الزاهدين والأولياء ، وإلا إذا لم يكن هؤلاء أولياءَ الله تعالى فمن الوليّ ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤] . كما قال الإمام الشافعي : « إذا لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله في أرضه ولي » . وإذا لم يكن أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وإسحاق بن راهويه والأوزاعي والثوري أولياء ، فمن الولي إذاً ؟!

وإني أقول على الملأ خذوه عني : ألا ما أَحوجنا إلى الفقه بهذا المعنى العظيم ، وما أحوجنا إلى فقهاء من هذا الطراز ، وإنّ آخر هذه الأمة لا يصلُح إلا بما صَلَح به أولها .

هذا هو التصور الصحيح للفقه الأكبر ، وهو البَلْسَم الشافي لأمراض النفوس المستعصية في هذا العصر إن شاء الله .

* * *

أما بعد ،

فهذه قَبَساتٌ هادفاتٌ من عَظَامات الفقهاء السابقين ، تدلنا على أنهم لم يقتصروا في فقههم على معرفة بعض الأحكام أو الأدلة ، بل كان فقههم شاملاً الشريعة كلَّها ، وَمُجْمَل العقيدة الوسط عِلْماً وعملاً وتَحقُّقاً ، تَصَوُّراً وتصديقاً ، فقهاً وفهماً وتطبيقاً .

وهذا هو إسلام الصحابة وفقههم رضوان الله عليهم .

وهذه هي الربانيَّة في الفقهاء الربانيِّين في الأمة الربانيَّة الواحدة ، وما أحوجَنا إليهم اليوم . . .

فما قيمة علم ليس معه عمل ومحاسبة للنفس ومراقبة لله وخشية منه ؟ ذلك هو علم اللسان وما أغنانا عنه .

الفقه هو الخشية من الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

الفقه هو ما يدلُّك على الله ، فإذا لم يدلَّك الفقه والعلم على الله فالجهل خير منه .

وقد نعى الله على اليهود أنهم في علمهم الذي لم ينتفعوا به لِأمراض مستحكمة في قلوبهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً .

وهذا هو المَثَلُ لطالب علمٍ يَعْلم شيئاً ويعمل بخلافه ، اتّباعاً لهوى نفسه ، فهو الذي اتَّخَذَ إلهه هواه وأضلَّه الله على علم .

ولعلي بعد هذا غنيٌّ عن البيان أن الداء الذي تَشَخَّص في الدعاة للإسلام اليوم ، ليس هو الجهل في طلاب العلم ، بل هو جَعْلُ العلم كلماتٍ على اللسان يلقلق بها ذلك الإنسان ثم يتركها ، ويجري لشأنه حسبما يوحي له هواه .

والدواء الوحيد والعلاج الشافي إن شاء الله يكمن في صحوة الضمير لدى طالب العلم ، صحوة توقظ فيه قلبه المتبلِّد ، ووجدانه النائم في سُبات عميق ، ليصحوَ على ذكر الله وخشيته ومراقبته تعالى ، فيحاسبَ نفسه ويوبخها ثم يأْطرها على الحق أَطْراً ، ولا يزال يحرقُها بنار الحُزْن والبكاء ، ويكويها بسيوف المخالفة لها في رضاء الله ، حتى يطوِّعها إلى العبودية لله عز وجل ، ولزوم بابه سبحانه ، فترجعَ عبداً قِنّاً خالصاً لله عز وجل ، معترفةً بهذه العبودية تعبد الله مقام الإحسان حتى لَكأنها تراه .

قيل لبشر الحافي : إنَّ أخاك ابنَ المنكدر يبكي منذ ليالٍ فتعالَ إليه ، فلما جاء قال لَه :

ـ لِمَ تبكي يا أخي ؟

قال : أبكي لقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم : ٧١] .

ذكر سبحانه الورود ولم يذكر الخروج ، فلعلي أَرِدُ النار ولا أخرج منها . فبكى بشر ، بكى أكثر منه . . .

فقيل له : جئنا بِكَ لتُسكتَه فبكيتَ مثلَه . . .

* * *

أَجَلْ غداً . . . غداً تَـزُول مسرحية الحياة كلُّها ، ولا يبقى من هذا الغُرور شيء ، تزول هذه الأكسية والأردية والجاهاتُ والأموال والبنون والزوجاتُ ، الحياة وصَخَبُها وضوضاؤها ولذاتُها ومحنُها ، آلامها وآمالُها . . . كلُّ أولئك وسيلة لا غاية ، والفوز يوم القيامة هو الغاية : وصدق الله إذ يقول :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

* * *

نَقْدُ مَنْهَج المُؤرِّخينَ

ولُزوم اعتمادِ مَنهَج المحدِّثينَ أَصلاً في تَنَخُّل الرواية

ورَدُّ الشُّبُهاتِ المُتَعلِّقةِ بِذلك

شَدَّني إلى هذا البحث الخَطير أمران : واحد غير مباشِر ، وآخر مباشِر .

أما الأمر الأول غير المباشر فما وجدته ووجدَه معي كلُّ طالب علم باحثٍ في كتب التواريخ والتراجم والأدب وغيرها ، من أغاليطَ وطامَّات من روايات كاذبة آثمة ، جَرَّت على الأُمّة بلاءً كبيراً وشَرّاً مستطيراً ، فكانت من أسباب تفريقها وتمزيق وحدتها يومَ أُخِذَتْ على عِلاَّتِها . واحتج بها المسلمون بعضُهم على بعض ، دون أن يُجَشموا أنفسهم عَنَاء البحث عن أصلها وكاتبها ، حتى ساد الاعتقاد بها وصارت لدى العامة والسُّوقة والدَّهماء جزءاً من الدِّين ، استحَلَّ أناسٌ من المسلمين دماءَ المسلمين ، وضَرب بعضُهم بسببها رقاب بعض ، فكانت أشدَّ على هذه الأمة من أعدائها ، فكم بريءٍ اتُّهم في دينه ، وكم مسلمٍ فُسِّق وبُدِّع ، وكم مُصلحٍ مستقيم نقيِّ العقيدة ، أتُّهم بالضلال أو بالردة والكفر جَرَّاءَ رواية كاذبةٍ واهية ، أو قصة مختَلَقَة آثمةٍ ما أنزل الله بها من سلطان .

ولقد كان الرعيل الأول من هذه الأمة أوْعى منا ، يوم كانوا يتشدَّدون في قَبول الرواية أيّاً كانت ، وفي كل العلوم والمعارف ، فلا يقبلون إلا

ما ظهرت صحته ، وقام عليه البرهانُ كالشمس في رابعة النهار ، فكان لهم من علمهم وورعهم وعقولهم ما يحجزهم عن أن ينخدعوا بكلام مُزَخرَفٍ مُزَوَّقٍ لا أصلَ له ولا جذور ، لأنه كان بين أيديهم معيار ثابت دقيق لا يَمينُ ولا ينحاز ، لا يتجانف لإِثم ، ولا يميل إلى ضلال ، معيار لنا ديننا شريعة ربنا فأضعناه ، فيومَ ضاع من يدنا هذا المعيار العظيم ضاع منا كلُّ شيء .

واليوم أجِدني مَدْعوّاً إلى نقد منهج المؤرخين وبيان عُوارِه ، وبيانِ لزوم العَوْدِ إلى المعيار الذي يضبط لنا الأصولَ ويُعايرها ، يتنخَّل لنا الروايات فَيَرْصُدُها لِيميزَ الخبيث من الطَّيِّب .

وما أشد حاجة المسلمين اليوم بعامةٍ ، والباحثين من طلاب العلم والدعاةِ بخاصة إلى هذا المعيار ، يمسكون به بكلتا يديهم ، ويَعَضُّون عليه بالنواجذ ، يَضبطون به كلَّ شيء جاءهم من الروايات والأخبار مما سوى الوحي الإلهي ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فتستقيم لهم روايتهم وعلومُهم ، ويَستقيم لهم بحثهم العلمي ، فيُؤتي أُكُلَه بإذن ربه .

هذا أمر .

والأمر الثاني المباشر تلك المقولة العجيبة التي نَشرتْها بأَخَرَةٍ بعض الدَّوريات العربية التي تصدر في جهات غير عربية ولا إسلامية ، وهي لا تُمثِّل رأي صاحبها فحسب ، بِقَدْر ما تُمَثِّل تياراً جديداً يدعو إلى شيء جديد بوضوحٍ عجيب ، وهو ليس جديداً إلا بوضوحه هذا ، ولكنَّ الوحي تَنَبَّأَ به منذ فجر البعثة المحمدية ، تلك المقولة تُلغي شكلاً وموضعاً جملةً وتفصيلاً الحديث النبوي القدسي وغير القدسي ، وترفع عنه اسم السُّنَّة النبوية أو السُّنَّة مطلقاً ، فالسُّنَّة عند الكاتب هي القرآن حصراً وليست شيئاً

آخر . فالقرآن هو قرآن وسُنّة أي منهج وطريقة ، ولا شأن لأي كلام تَحدَّث به محمد إلى أصحابه في شرح القرآن وبيان مُجْمَلِه ومنسوخه ، لا شأن لذلك في التشريع ولا يُعَدُّ سُنَّةً ولا قيمةَ دينيةً له أبداً ، بل هو شيء آخر لا علاقة له البتَّة بالتشريع الإسلامي الذي انحصر ضمن دائرة القرآن ، وجعل القرآن المصدر الوحيد له ، وجعله حَكْراً على القرآن .

إذاً هو إلغاءُ السُّنَّة النبويّة روايةً ودرايةً إلغاءً تاماً باسم الحفاظ على القرآن ، وهو شيء قاله غيره ، ولكن ما تَفرَّد به الكاتب هو أنه جعل كلمة السُّنَّة هي القرآن ، فهما مترادفان . . . وليس هنالك شيء اسمه مصطلح الحديث ، ولو وُجد فهو مخالفٌ عن سُنَّةِ رسول الله بالذات ولو سُمِّي باسمها . . . !!

شيء عجيب ، ونَشْرُه على المسلمين أعجب وأغرب ، وأن يكون قائله مسلماً أدهى وأَمَرُّ . . .

لـو بغيـرِ المَـاءِ حَلْقـي شَـرِقٌ   كنتُ كالغَصَّانِ بالماء اعْتصاري

لهذين الأمرين معاً جردت القلم بعد طول صمت ، لأضع الحق في نصابه إن شاء الله بلغة العلم التي لا أُحْسِنُ غيرها ولله الحمد ، وضِمْنَ دائرة العقل والمنطق السليم والمسلَّمات العقلية ، وما تَبَقَّى لنا من مسلَّمات إسلامية ، إذا كان هنالك قد بقيت مسلَّمات . . .

ولقد جعلت البحث قائماً على مدخل ومقاصد ثلاثة وخاتمةٍ ، ودونك التفصيل .

* * *

المَدْخَل :

أما المدخل فهو في بيان أَنَّ الأمم السابقة لم تُعْنَ في الأعمِّ الأغلب في النقل والرواية بالإسناد ، والتحري في معرفة رجاله ودرجاتهم من العدالة والضبط ، فكانت الحوادث التاريخية تُروَى على عِلاَّتها ، والأديانُ والمذاهب يُعَوَّل فيها على التلقّي من أفواه النَّقَلة وكتاباتهم ، دون سؤالٍ عن الإسناد ، فضلاً عن دراسته وبحثه ، لكنَّ الله تعالى لمّا جَعَل هذا الدين خاتمة الرسالات والأديان ، وتعهَّد بحفظه وصونه ، اختَصَّ هذه الأُمَّةَ بأن وفَّقَها لحفظ كتاب ربها ، وصيانة حديث نبيها صلوات الله عليه ، فإذا بها تبتكر لحفظ النصوص الدينية قواعد المصطلح على أدق منهج علمي ، يمكن أن يوجَد ، للاستثبات من النصوص المروية وتمحيصها منذ أول عهدها بالحياة ومجابهتها لمشكلاتها ، فهذا مما خصَّ الله به المسلمين دون سائر أهل الملل كلِّها ، وأبقاه عندهم غضّاً جديداً على الدَّهر كما قيل : (خَصَّ الله هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يُعطِها مَنْ قَبْلَها : الإسناد ، والأنساب ، والإعراب) .

وفي هذا العصر اعترف الباحثون المعاصرون من غير المسلمين للمحدِّثين بدقة عملهم ، وأَقَرُّوا بحُسْن صَنيعهم ، واتخذ علماء التاريخ من قواعدهم أصولاً يَتَّبعونها في تقصي الحقائق التاريخية ، ووجدوا فيها خير ميزان توزَن به وثائق التاريخ ، واقرأْ إنْ شئت في كتاب : (مصطلح التاريخ) للدكتور أسد رستم[1] أستاذ التاريخ المعاصر ، تجد في كثير من صفحاته ومَوْضوعاته تصديقاً لما أقول .

---

(١) يقول الأستاذ الدكتور أسد رستم في كتابه القيِّم « مصطلح التاريخ » ما نصه :
« والواقع أن المثودولوجية الغربية التي تظهر اليوم لأول مرة بثوب عربي ليست =

المَقْصد الأول : نقد منهج المؤرخين :

ظَلَّ الإسنادُ والتَّثبُّتُ من الرواية حَسْبَ منهج المحدِّثين الذي لم يَتَبَلْور آنئذٍ ، سائداً طَوالَ الفترة الذهبية الأولى من حياة هذه الأمة ، أَلَا وهي فترة عهد الصحابة وكبار التابعين ، فلم يكن هناك غير هذا المنهج العلمي ، تُتَنَخَّل به الروايات كلُّها الدينية وغير الدينية ، ذلك لأنه لم يكن التأريخ لهذه الحقبة قد بدأ ، فلم يكن هنالك داعٍ لمنهج تأريخي ، حتى ظهرت الفِرَقُ والمذاهب وظهر أهل الأهواء ، وبدأ التلاعب بالروايات التاريخية وغيرها ، ولَمَّا لم يكن آنذاك فرق بين الكتابة التأريخية والكتابة الدينية ، جَرى الخَلْطُ فيهما معاً زيادةً ونقصاً ، تبديلاً وتغييراً ، ساعد على ذلك دخول مُسلمة أهل الكتاب في الإسلام خوفاً وطمعاً ، فأتَوا معهم بكثير من الإسرائيليات والأغاليط ، وزرعوها في أدمغة الرواة بعد انقراض عصر الصحابة العدول الذين زكَّاهم الله تعالى بقول : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، فانتشر في عهد التابعين وتابعيهم كثير من الروايات المختلَقَة والأحاديث الموضوعة ، فَهَبَّ المحدِّثون الجهابذة عندئذٍ للذَّود عن السُّنَّةِ المشرَّفة ، فَدَوَّنوا قواعد التحديث وهو ما يُسمَّى

= غريبة عن علم مصطلح الحديث ، بل تمتُّ إليه بصلة قوية ، فالتاريخ دراية أولاً ثم رواية ، كما أن الحديث دراية ورواية ، وبعض القواعد التي وضعها الأئمة منذ قرون عديدة للتوصل إلى الحقيقة في الحديث ، تتفق في جوهرها وبعض الأنظمة التي أقرها فيما بعد علماء أوروبا في بناء علم المثودولوجية . ولو أن مؤرخي أوروبا في العصور الحديثة اطّلعوا على مصنَّفات الأئمة المحدثين ، لما تأخروا في تأسيس علم المثودولوجية حتى أواخر القرن الماضي ، وبإمكاننا أن نصارح زملاءنا في الغرب فنؤكد لهم بأن ما يفاخرون به من هذا القبيل نشأ وترعرع في بلادنا ، ونحن أحق الناس بتعليمه والعمل بأسسه وقواعده » . انظر كتاب « مصطلح التاريخ » للدكتور أسد رستم / المقدمة ص/ ز/ و/ ح/ منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت/ الطبعة الثالثة . .

بعلم مصطلح الحديث ، وسبقوا إليه ، وهو عِلْمٌ كانَ موجوداً في عقول الصحابة وكبار التابعين ، وثابتاً ضمن مناهجهم في القبول والرّدّ ، بل كانوا رَضِيَ اللهُ عَنهُم يسحبونه على كل المرويات ما كان ديناً وما لم يكن ، كما كان علم أصول الفقه وعلم النحو وعلم اللغة وعلم العَروض وعلم الفروع وأصول الدين ، كل ذلك كان مختزَناً في عقولهم القوية الذكية ، مرتسماً في مناهجهم العلمية ، تَرْشَحُ بها عباراتهم من على ألسنتهم معارفَ بالفطرة والسليقة ، حتى إذا فسدت الأذواق وفَشَت العُجمة ، وذهب ذلك الرعيل المتفوِّق في الذكاء ، وتهجَّنت الدماء اضطر العلماء لتدوين العلوم وتقعيدها ، مخافَةَ دُرُوسِها واندثارها ، فَدَوَّنوا النحو وأصولَ الفقه والعروض واللغة وأصول الدين والفروع سُنَّة وغيرها من العلوم ، وكذلك فعلوا في علم مُصطلح الحديث . . .

وهنا نشأ إلى جانب هذا المنهجِ الفريد الذي ظَلَّ وحيداً يُحتكم إليه في كل شيء ، طَوالَ الدَّور الأول من عهد الصحابة وصدور التابعين ، وهو دَوْر التأصيل . . نشأ منهج آخر هو منهج المؤرِّخين ، ظهر في الدَّوْر الثاني دور التدوين ، فافترقا ، فاشتغل المحدِّثون فقط بمنهج مصطلح الحديث ومعاييره ، حفظاً للسُّنَّةِ وللنصوص الدينية ، وغَيْرةً عليها من حيث لم يُعْنَ المؤرِّخون ـ زمن استقلال العلوم بعضِها عن بعض ـ لم يُعْنَوْا بذلك لأن الرواية التأريخية في نظرهم ليس لها من القدسية ما للنصوص الدينية ، فلا حاجة بهم إلى ذلك التَنَخُّل والتَّشَدُّدِ ، وهذا خطأ كبير فادح وقعوا فيه دَفَع مَنْ بعدهم ثمنَه فُرْقةً وتناحُراً إلى يومنا هذا ، حتى يُكتَب للأمة العربية الإسلامية من يُعيد فيها كتابة التأريخ وَفْقَ منهج المحدِّثين ، لا وَفْق منهج المؤرِّخين .

ونظرةٌ سريعة إلى الأمثلة الآتية ، تعطينا إلى أيِّ مدىً قَصَّر المؤرِّخون في إهمالهم ذاك وتَساهلهم المَشين :

١ـ فانظروا ـ رحمكم الله ـ إلى ما أَوْرَده ابن قُتيبة الدِّينَوري في كتابه (الإمامة والسياسة) في شأن الفتنة الكبرى ، وما افترى هذا المؤرِّخ في حق الصحابة الكرام العدول ، وعلى رأسهم أم المؤمنين الصِدِّيقة بنت الصِدّيق عائشة رَضِي اللهُ عَنْهَا وعن أبويها ، في شأن وقعة الجمل من تنقص وانتقاد مُرّ شنيع مرفوض ، مع خلط في الرواية وتجاهلٍ للإسناد وشروطه وضوابطه .

٢ـ وانظروا ـ رحمكم الله تعالى ـ إلى ما كتبه أبو الفرج الأصفهاني في خلفاء بني أمية وبني العباس من الأكاذيب والافتراءات التي يفوح منها رائحة الكذب والاختلاق ، وهؤلاء الخلفاء العظام على جلالة قدرهم لم يكونوا معصومين ولا مبرئين عن الخطأ في السلوك والتقدير بل هم بشر من الناس لهم وعليهم ولكنْ أكثر ما قيل في حقهم في هذا الكتاب وأضرابه كذب في كذب ، لعدم وجود الإسناد الصحيح المعتمد على قواعد المحدِّثين ، وفقدان الرواية الصادقة أوّلاً ، ولأن العقل السليم يُحيل التصديق بها ثانياً ، ذلك لأنهم حكموا زمن ازدهار الحضارة الإسلامية وفي القرون الثلاثة المشهودِ لها بالخيرية وهي مرحلة السلف الصالح ، فلو كان شيء من هذا صحيحاً لتمرد الناس عليهم وأسقطوهم لا يُبالون .

٣ـ وانظروا ـ رحمكم الله ـ إلى ما افتراه بعض المؤرخين المسلمين وغير المسلمين في حق الخليفة الصالح المجاهد الرشيد ، كاسر جماجم القياصرة والرومان ، الذي حج ماشياً إلى مكة وكان يغزو سنةً ويحج سنةً ، لقد شوَّهوا سُمْعتَه ولطَّخوها بالإفك ، واتهموه بما هو منه بريء ، ولقد واللهِ كان بكّاءً من خشية الله إذا ذُكِّر به ، لا يقطع التَّهَجُّدَ ولا يَبيت إلا على وضوء وطهارة ، يحب العلماء بالله عز وجل ، ويزورهم ويستمع إلى وَصَاتهم وعِظاتهم النابعة من القلب. . .

وماذا نقموا عليه ؟! الخمر والنساء، اللهم إنه بريء من ذلك ، وأشهد الله على ذلك ، ولديَّ من الحُجج والبراهين ما أُثبت به براءة الرجل وأمثاله من هذه الأوضار . والحق أن أكثر أهل العراق يتساهلون بأمر النبيذ من حيث يتشدَّد به غيرهم ، ونبيذ أهل العراق هذا ، ما هو بنبيذ إلا لغةً فقط ، ولا يَعْدُو أن يكون ماءً حُلْواً نُبِذَت فيه فاكهة ، فهو نبيذ لغوي ، والناس اليوم يشربون الصَّليبة والنقوع (الخُشاف) وهو في العربية نبيذ ، أفيحرم هذا شرعاً ؟! والشرط فيه ألاَّ يصل إلى درجة الإسكار ولا التفتير بقليله فضلاً عن كثيره ، ولو بملء الكف ، فما أسكر أو فَتَّر ملء الكف منه فهو حرام ، وهذا ما كان لِيَستبيحه لا أهل العراق ولا غيرهم ، لا الملوك ولا السُّوقة .

أمّا الجواري فهذا ليس شأنَ الملوك وحدهم ، بل هو ترف عام عمَّ المجتمع الإسلامي من الرَّخاء والسَّعْدِ ، وهو من ثمرات الجهاد ، وهو داخل تحت قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء: ٣] أفلا يحق للرشيد ، بل لأصغر فرد من رعيته ، أن يتمتع بالحسناوات من الروميات الفاتنات من الإماء المأسورات ، وهم يجاهدون في سبيل الله بالشواتي والصوائف في عُقر بلاد الروم ، ثم إن الله قد أباحه لهم فهو كالزواج ، واسمه شرعاً : (التَّسَرِّي) بالإماء . . ، فماذا نقموا على خلفاء المسلمين ؟ وهل في المباحات من التسرِّي بالإماء الحسناوات ، وشرب النُّقوع غير المسكر ولا المفتِّر زنى وخمر ؟! ومَن قال بذلك . وهل ترك الأصفهاني الغالي وصمةَ عارٍ لم يُلصقها بخلفاء المسلمين وملوكهم الأوائل الفاتحين ، الذين فتحوا الدُّول والممالك ، وخضعت لهم العروش ونشروا الإسلام في ربوع الدنيا ، ودانت لهم حَصَاةُ الأرض ؟! وهل نجا أحد من أولئك الميامين من هذا الكذب والتخليط ؟ . . .

٤ـ وها هو شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله تعالى يُرمَى بالتجسيم وهو منه بُراء ، بل إنه لَيُنَفِّر منه وَمن اتَّهمه بذلك ؟ راوٍ رَحَّالةٌ مؤرِّخ صاحب حقد ثبت بالدليل العلمي الراجح أنه لم يلق شيخ الإسلام ابن تيمية قَطُّ ، فوَصَمه بأنه قال بالنزول الحِسِّي للرب تبارك وتعالى . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وعقيد الإمام ابن تيمية هو عقيد السلف من التفويض لم يَزد على ذلك شيئاً ، ولا ثَبَت عنه خلاف ذلك وافقناه أم خالفناه ، فهذا أمر آخر .

٥ـ وهل نجا الشعراني ؟ فانظر في كتابه (اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر) تَجدْهُ يذكر فيه ما وقع له من الزيادة على كتبه المخطوطة ، والدسِّ فيها في حياته بعقائد مكفِّرة لم تخطر بباله ، فضلاً عن تدوينها في كتبه . كان ذلك بفعلٍ من بعض يهود اليمن من النسَّاخين والورَّاقين ، وأظهروا ذلك للعلماء حتى كادوا يحكموا بكفر الرجل وهو بينهم حيٌّ يُرْزَق ، فأظهر لهم نسخته الأصل بخطه فرجعوا واعتذروا ، ولولا ذلكَ لَقُطعت عنقه فيما أَحْسَبُ . . .

٦ـ ثم لم نُبعِدُ في الأمر وها هو أحد العَصْرِيِّين من الكُتَّاب الأدباء المؤرِّخين ، وهو جرجي زيدان ، من ذهب في تحكيم هواه في الرواية التاريخية كلَّ مذهب ، حتى سخَّر التأريخ العربي وفق مزاجه الخبيث ، إلى أن زَعَم في روايته (غروب الأندلس) أنَّ الذي أدخل المسلمين الأوَّلين لفتح الأندلس هم اليهود ، ونجد هذا الرجل مفتوناً باليهود أيَّما فتنة ، حتى لكأني أَحْسَبه موظَّفاً عندهم مأجوراً ، فلا تجد سُبَّةً إلا وألصقها بخلفاء المسلمين وملوكهم الفاتحين وعظمائهم ، حتى لَيُخَيَّل لك أنه لا يوجد عظيم عند العرب المسلمين ارتفع وفتح وانتصر إلاّ ولليهود في عنقه مِنَّة ، وهم كانوا من وراء ذلك ولولاهم لما فعل شيئاً ،

وهو في حقيقة الأمر زير نساء ورجل كاسٍ وطاسٍ فَحَسْبُ ، ولا يزيد على ذلكَ قِيدَ أَنْمُلةٍ . فَتَصَّوروا رحمكم الله فَدَاحة الخطب إذا صدَّقْنا هذا المأفون في كل ما قال . . .

* * *

ثم مالَنا ولكلام المعاصرين بعضِهم ببعض ؟! إننا لو فعلنا فأخذنا كلام بعضهم في بعض وكلام أهل كل صنعةٍ برجال صنعتِهم ، لما بقي لنا أحد نقتدي به على الإطلاق بعد الأنبياء والرسل الكرام!! وهل يجوز لنا أن نأخذ كلام الخطيب البغدادي في أبي حنيفة الإمام العظيم ، أو كلام الترمذي في بعض الأئمة من كلام المحدِّثين أو كلام ابن حزم في غيره من الأئمة الفقهاء ؟! .

الله الله أيها الناس على رِسْلِكم قُولوا قَصْدَكم لا تَضِلّوا ، فلقد قرَّر علماء أصول الحديث واتفقت كلمتهم على ذلك ، أنه لا يُؤخذ كلام المُعاصر في المُعاصر ولا كلام الأئمة الأعلام بعضهم ببعض إلا بحجة قاطعة وبرهانٍ يقينيٍّ ، مع اشتراط التواتر في النقل والرواية وإلاّ فلا . . .

* * *

وبعد ، فإن منهج المؤرخين قائم على ثلاثة أمور مردودة عند المحدِّثين وعلماء الجرح والتعديل :

١ـ التساهل في الرواية شكلاً وموضوعاً ، فيكون التساهل في الإسناد تارةً ، وفي التَّثَبُّتِ من صدق الرواة ثانياً ، وفي طرف التحمل ثالثاً ، ثم في الضبط والعدالة رابعاً مما يؤدي إلى التصحيف والتحريف والتبديل ، والمطلوب هو التشدد والتَّنَخُّل في الرواية مع جميع الوجوه وهو المقصود بالعدالة .

٢ـ أخذ كلام المعاصرين والعلماء والأئمة بعضهم ببعض ، وهو إذا

كان مغفوراً لهم رحمهم الله تعالى ورضي عنهم جميعاً ، لأسباب وجيهة أهمها الغيرةُ على الدِّين وعلومه وإبعاد الشُّبهات والأهواء ، لقد بالغوا في ذلك ، فإنه اليوم لا يجوز ذلك بحالٍ ، بل يجب علينا طَمْر ذلك ودفنه وإلى الأبد ، وأن ننظر إلى الأئمة الأعلام جميعاً على أنهم عُدول خدموا هذا الدين ، وافقناهم أم خالفناهم ، فما من أحد يُؤخذ كلامه كلُّه ، ولا هنالكَ مَن يُترك كلامه كلُّه ، وما من أحد إلاّ ويُؤخذ من كلامه ويُترك ، ويردُّ عليه إلا صاحبَ هذا القبر صلوات الله عليه ألا وهو المعصوم .

٣ـ والأمر الثالث هو منهج التوسُّم والاسترداد المبنيُّ على الحَدْس والظن والخرص ، وقد رفضه الإسلام رفضاً قاطعاً . قال تعالى : ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ [الذاريات : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم : ٢٨] ، فهو منهج لا يصلح أبداً أن يكون منهجاً علمياً نُحاكم له الروايات التاريخية وغيرها ، وغايةُ الأمر فيه إذا اشتد وصَلُبَ عُوده ، أن يُستأنَس به فقط فيما ليس من الدِّين ولا من الشرع ولا من التأريخ الإسلامي والعربي ، الذي يجب أن يُشاد على الحقائق العلمية القطعية حَصْراً ، فلا مانع من استخدام منهج التوسُّم والاسترداد في شأن كشف طبقات الأرض وعمرها والحقب القديمة والمجرات وغيرها مما شاكل ذلك ، ولقد أكثر الباحثون الأوربيون من استخدام هذا المنهج في كل شيء حتى في العلوم الدينية ولا سيما المستشرقين ، وتبعهم على ذلك كثير من تلاميذهم تلامذة مدرسة الاستشراق من الباحثين الإسلاميين ، فوقعوا في الطَّامَّات كجرجي زيدان والدكتور محمد حسين هيكل والدكتور طه حسين وأضرابهم ، من الذين لم يزيدوا على أن كانوا امتداداً لأولئك الأساتيذ أرباب مدرسة الاستشراق ، مثل درمنغهام ونولدكه ونيكلسون وأضرابهم ، من ذوي العقل العفن والحقد الصليبي الأسود والمنهج الظني المرفوض المسمَّى بمنهج التوسُّم والاسترداد .

المقصد الثاني : لزوم اعتماد منهج المحدِّثين أصْلاً في تَنَخُّل الرواية :

لَفَتَ هذا المنهج التأريخي الفاسدُ نظر علمائنا القُدامى الأعلام ، فكَرُّوا عليه نَقْضاً وهَدْماً ، وأعظم من رأيتُه صَنَع ذلك منهم الإمام أبو بكر ابن العربي المعافري الأندلسي ، عَصْريُّ الإمام الغزالي أبي حامد ، في كتابه العظيم (العواصم من القواصم) ، فلقد شفَى النفوسَ ، ولا يقلُّ الغزالي حُجَّةُ الإسلام أبو حامد عن ابن العربي رحمهما الله تعالى في ذلك ، فله في هذا الميدان جَوْلاتٌ مُوَفَّقةٌ ، أعظمها في كتابه المنهجي العظيم الفريد (المنقذ من الضلال) الذي كان أصلاً لكل من جاء بعده من مفكِّري الغرب مثل ديكارت وكانْت وأضرابهم ، وكذلك العقول الكبيرة المفكِّرة ، صَنَعَتْ كما صَنَعَ هذان العَلَمان ، فهنالك الحافظ ابن حَجَر وتلميذه السَّخَاويُّ والحافظ العراقي والحافظ هبة الله بن عساكر ، والحافظ المؤرِّخ أبو شامة المَقْدسيُّ ، ثم جاء من بعد هذا الرعيل الشعراني في (اليواقيت والجواهر) ، وجاء بعد ذلك أعلام آخرون ضاق المكان عن ذكرهم ، كان آخرَهم فيما أعلم مجتهد المذهب ومحرِّرُه الإمام ابن عابدين الكبير صاحب حاشية رد المحتار ، فلقد كان جِهْبِذاً في تنخُّل الرواية ونقدها[١] .

ولقد لهج علماء الغرب منذ عصر التنوير لديهم ـ وهو أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وأوائل القرن السادس عشر ـ لهجوا بعلم جديد ظنوا أنفسهم أنهم رُوَّاده ، وهو نقد الرواية التأريخية نقداً منهجياً سَمَّوه لديهم : (المثودلوجية) أي (أصول التاريخ) أو (مصطلح التأريخ) وكتبوا في ذلك كتباً كانت حصيلة ونتَاجاً لملاحظاتهم وتجاربهم ، ولمَّا

---

(١) انظر كتابنا (ابن عابدين وأثره في الفقه دراسة مقارنة بالقانون) رسالة دكتوراه .

أراد أن يترجم ذلك الدكتور أسد رستم اضطر للمقارنة بين ما جاءه عن الغرب وبين ما كان لديه من نَتَاجِ عقول العرب المسلمين ، فَوَجَدَ أن الغرب مسبوق بذلك سَبْقاً واضحاً ، وأنَّ الرواد الحقيقيين هم مؤرِّخو المسلمين ومحدِّثوهم الذين كتبوا الرواية وَفْقاً لمنهج النقد لديهم ذلك المنهج الفريد الذي لم يُسْبق ولن يُلحق ، ألا وهو منهج المحدِّثين في علم مصطلح الحديث ، فكتَبَ حينئذٍ للجامعة الأمريكية ببيروت كتابه القيِّم (مصطلح التاريخ) وبرهن على ما ذهب إليه بالبرهان العلمي .

وهكذا فالعقل القوي يصحح الأغاليط ويردها إلى أصولها ، فلا تدخل عليه عُمْلةٌ مُزَيَّفَةٌ أبداً ، كما لا تدخل الدراهم والدنانير السَّتُّوقة على الصائغ الماهر ، وفي الأثر : « كفى بالمرء إثماً أن يحدِّث بكل ما سمع » .

* * *

المَقصِدُ الثالث : الرَّدُّ على شُبْهَةِ إلْغَاءِ السُّنَّة باسم السُّنَّة :

بقي هنالك شبهةٌ واضحةٌ مكشوفةُ العُوار ، جاءتْنا اليوم باسم مستعار تحت شعار المحافظة على القرآن الكريم ، ومثل هذا الكلام لا يُراد به إلا باطل ، وهو إلغاء السُّنَّة باسم السُّنَّة ، وأَجِدني بعد قراءة ما كُتب في بعض الدَّوْريات العربية غنياً عن الخوض في لغو القول ، فأكشف الباطل المكشوف الذي يُنادي على نفسه ، ولكنَّها شِنْشِنَةٌ من أخزم ، وهذا ليس بكلام جديد ، وإنما الأمر المُذهِل أنَّ عين الدعوى هي ذاتها الدليل بل البرهان الأظهر على بطلانها ، فقد جاء في الحديث النبوي الشريف الذي يُنادي اليوم هؤلاء بإلغائه شكلاً وموضعاً ، زاعمين أن السُّنَّة هي الكتاب زُوراً وبهتاناً : جاء عن النبي صلوات الله عليه قوله : « ألا لا أرى رجلاً

جالساً على أريكته يقول ما جاءنا من كتاب الله قبلناه ، وما جاءنا عن رسول الله رددناه ، ألا وإن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ » [الحشر : ٧] .

إنها النبوَّة. . . .

ولكي أشرح أبعاد هذه الخيانة منكوسة الرأس لا بد لي أن أقول : إن القرآن حَمَّالٌ ذو وجوه ، وهو وإنْ كان مَتْنَ الدِّين ودستورَ المسلمين ، إلا أنه يحتاج إلى شرح إلهِي أيضاً ، يخصص عامه ويُقيِّد مُطْلَقَهُ ، ويبيِّن منسوخه ، ويفصِّل مُجْمَلَه ، ويزيد أحياناً أحكاماً لم يأت بها القرآن ، لذلك كان الوحيُ عند علماء المسلمين باتفاق وَحْيَيْن اثنين : وحياً مَتْلُوّاً ووحياً غير مَتْلُوٍّ ، فالمتلو هو القرآن ، وغير المَتْلُوّ هو الحديث النبوي الشريف وهو الذي سَمَّاه رسول الله صلوات الله عليه في كلامه لأصحابه (سُنَّةً) فقال : « عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديِّين من بعدي » ، وقال : « تركتُ فيكم ما إنْ تمسَّكتم به لن تضلُّوا كتاب الله وسُنَّتي » . والله تعالى يقول :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٧].

وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] .

لم يُخالف عن هذا إمام ولا مذهب ولا عالِم ولا فقيه ، وإني لأَتحدَّى. . .

وإذا كانت السُّنَّة بمعناها اللغوي تشمل القرآن فمعناها حينئذٍ النهج والطريقة ، وهذا شيء والحديث الشريف الذي عُرف بالسُّنَّة شيء آخر ومعناها : قول الرسول وفعله وتقريره عند الأصوليين ، وزاد المحدِّثون وَصْفَه صلوات الله عليه ، وجَعَلوا الحديثَ الشريف سُنَّةً بالإجماع بين

الصحابة والتابعين وسلفِ هذه الأمة لم يخالف عن ذلك أحد منهم وجعلوا بذلك السُّنَّة هذه وحياً باطناً من حيث القرآن وحي ظاهر ، وارجع إن شئتَ إلى الرسالة الأصولية للإمام الشافعي ثم إلى أصول السرخسي والبزدوي وشرحه الكشف الكبير وإلى التوضيح وحاشيته التلويح وكتابنا (الوجيز الأصولي) وغير ذلك من كتب الأصول ، وإلى كتب المصطلح مثل كتاب مقدِّمة ابن الصلاح (علوم الحديث) وكتب الخطيب البغدادي وغيره ، فهذا من المتفق عليه . وأمَّا نهي النبي صلوات الله عليه عن كتابة حديثه للجمهور ، فذلك كيلا يختلط الحديث الشريف بالقرآن الكريم لا لِيُهمَل الحديث النبوي ، فعدم التدوين شيء وعدم الاعتداد شيء آخر ، والذي كان أوّلَ من أمَرِ بكَتْب الحديث الشريف ليس مالِكاً ، بل هو أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أمر ابن شهاب الزُهري فقال : (عليك يا بن شهاب بكتابة حديث النبي صلوات الله عليه ، فإني خفت دُروس العلم وذهاب العلماء ، فما وجدته من حديثه صلوات الله عليه فاكتبه) وبالأصل كان الحديث النبوي يُتَلَقَّى من صدور الحفاظ المتقنين الضابطيَن ، وارجع إن شئت إلى كتاب (تدوين السُّنَّة) للدكتور محمد عجاج الخطيب فهو كتاب قيِّم في هذا الشأن ، ولعلك واجد بُغيتك أيضاً في كتاب (منهج النقد عند المحدِّثين) للدكتور نور الدين العتر ، ففي مقدِّماته وأوائله شفاء للنفوس وغذاء للقلوب والعقول . . .

أما بعد فمثل هذه الفرية مما لا يُردُّ عليه ، لأنه خيانة لا رأس لها فيرتفع وليست هي عِلْماً فيُرد عليه ، ولكنها آراء مرتجَلة ابتغى صاحبها أن يصبح معرفة ، فازداد عند الله والناس نكارةً ، وأظن أن وراءها جماعاتٍ يخططون لهذا الأمر من تشويش الأفكار وبلبلة العقول . والله من ورائهم محيط . . .

* * *

خاتمة البحث :

ألاَ ما أحوجَنا اليوم إلى أن نرجع في العلوم كلّها إلى منهج السلف الصالح من علماء هذه الأمة ، أَلا وهو المنهج العلمي المعترف به اليومَ في أرقى المعاهد العلمية وهو :

(إذا نقلتَ فالصحةَ ، وإن ادَّعيتَ فالدليلَ) .

فهو أصل البحث العلمي الحديث .

هذا ، وإنَّ والحقيقةَ كلَّ الحقيقة تكمن في منهج المحدِّثين لا في منهج المؤرخين ، فلمَ لا نفهم هذا المنهج الفريد الذي خصصنا به من دون سائر الأمم ، ألا وهو منهج المحدثين على العلوم كلِّها ، فيكون لدينا المعيار الدقيقَ الذي نُمسك به كيلا نَضِلَّ أو نَزِلَّ ، وأرجو أن نسميه من اليوم فصاعداً : (منهج العلماء المسلمين في نقد الرواية) لا منهجَ المحدِّثين كما كان معروفاً من قبل ، فينسحبُ أثره المبارك على التأريخ بخاصة والأدبِ واللغة والشعر وغير ذلك بعامةٍ ، وحينئذٍ يُمكننا كتابةُ التأريخ الإسلامي العربي كَتْبَةً جديدةً مُغَايِرةً ، ونَتَخَلَّص من كثيرٍ من الفُرقة والتناحر والتَّمَزُّقِ الذي يَشُلُّ حركة الأمة ورُقيَّها يومَ يظهر زيف كثير من الروايات والحكايات والأقاصيص التي ظلت دهراً من الدهر حقائقَ ثابتةً في أذهان الفِرَقِ الإسلامية والمذاهب كأنها وحيٌ مُنْزَلٌ ، وهي اختلاق محض كان من وارءِ إفْكهِ أعداء هذه الأمة وكثير من مُسْلِمةِ أهل الكتاب . وصدق الله تعالى إذ يقول في التنزيل : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] . وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [الرعد : ١٧] صدق الله العظيم .

* * *

ملامح الوسطية في الإسلام والالتزام به

الوسطيةُ في الإسلامِ والالتزامُ به قاعدةٌ كليةٌ عظيمة من كليات هذا الدين وخصائصِه ، بها تمدَّح الأدباء والشعراء ، ولها تنادى المفكرون والحكماء ، وإليها دعا الفلاسفة والعقلاء ، وهي تسري في شؤون العادات والأعراف والمواصفات ، كما تسري في شؤون الأخلاق والتشريع والعقائد ، وهي بعد من ثوابت الحياة كما أنها من ثوابت الإسلام ، ولعل جُلَّ المسلمين خواصِّهم وعوامِّهم في هذه المسألة ، ضائعون بين جانبي الإفراط والتفريط إلا مَن عُصم ، سواءٌ في التصور أو في السلوك أو فيهما معاً ، فضاعت الرؤية الصحيحة لحقائق الأشياء ، وضاعت معها الموازين والمعايير الدقيقة التي تزن الأمورَ فتضعها في نصابها ، وليس أضيعَ للحقوق وأشدَّ خطراً على الأمة وأكبرَ فتكاً فيها من ضيَاع المعالم وفُقدان الصُّوَى .

ولقد عرَّف العلماء الوسط من كل شيء بأنه أَعْدَلُه وخيارُه وأرفعُه محلاً ورتبةً ، والتوسط في الاصطلاح العلمي : (حالةٌ محمودة غالباً تقوم في العقل الإنساني السليم بالفطرة ، تعصمه من الميل إلى جانبي الإفراط والتفريط) .

وعلى ذلك قامت شواهد من الكتاب والسُّنَّة ، فقال تعالى :
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

قال المفسرون : الوسط هنا العدول ، وقال تعالى : ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة : ٢٣٨] . أي الفُضْلى ، لكونها متوسطةً بين سائر الصلوات ، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد (الوسَطُ : العَدْلُ ، جعلناكُم أُمَّةً وَسطاً) .

وقالت الحكماء : أَعدلُ بقاع الشيء وسطه ، لأن حكمه مع سائر أطرافه على سواءٍ واعتدالٍ ، والأطرافُ يتسارع إليها الخَلل والفساد ، والأوساط محمية ومَحُوطةٌ ، وسمي الخُلُق الفاضل وسَطاً ، من حيث إنه متوسِّط بين رذيلتين هما طرفا الإفراط والتفريط .

قال الشاعر العربي :

عليكَ بأوساط الأمور فإنَّها نَجَاةٌ ولا تَرْكبْ ذَلُولاً ولا صَعْبَا

* * *

أمَّا الشريعةُ الإسلامية المحمدية ، فجاريةٌ في التكليف بمقتضاها على الطريق الوَسَطِ الأَعدل ، الآخذِ من الطرفين بقسط لا مَيْلَ فيه ، الداخلِ تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال ، بل هو تكليف إلهيٌّ حكيم جارٍ على موازَنةٍ تقتضي في جميع المكلفين غايةَ الاعتدال ، فإنْ ورد شيء من التشريع لأجل انحراف بعض المكلَّفين ، أو وجود مظنة انحرافهم عن الوسط إلى أحد الطرفين ، كان هذا التشريع راداً إلى الوسط الأعدل ، لكن على وجه يميل فيه إلى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه ، فِعْلَ الطبيب الرفيق يحمل المريضَ على ما فيه صلاحه ، بمقدار حاله وعادته وقوةِ مرضه وضعفه ، حتى إذا ما استقلّتْ صِحَّتُه هيَّأَ له طريقاً في التدبير لائقاً به في جميع أحواله ، وهكذا تجد الشريعة أبداً في مواردها ومصادرها ، فالفقيه البالغُ ذِرْوةَ الدرجة في الفقاهة ، هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور ، فلا يذهب بهم مذهب

الشدة ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال ، وقد يَسُوغ له أحياناً أن يُحمِّل نفسه من التكليف ما هو فوق الوسط ، لكنْ ذلك لنفسه فَحَسْبُ ، ودون أن يراه الناسُ كيلا يُقتدى به ، ناوياً به مجاهدة النفس هواها في طاعة الله ، فقد ورد عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وصحبه التَّبَتُّلُ ، وقال لمعاذ لما أطال بالناس الصلاة : « أَفتَّانٌ أنت يا معاذ ؟ » وقال : « إنّ منكم منفِّرين » وقال : « سَدِّدوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيءٌ من الدُّلْجَةِ ، والقصدَ القصدَ تَبْلُغوا » ، وردَّ على أصحابه الوصال في الصوم. . . ، ثم إن لهذه القاعدة الفاذة ـ الوسطية ـ ضوابطَ في الفكر الإسلامي ومستثنياتٍ ومعالمَ يضيق المقام عن ذكرها .

* * *

وبعدُ ، فلكلِّ أمرٍ حقيقةٌ ، ولكل حقيقةٍ حدودٌ ومقاديرُ ، وكلُّ إدراك أو تعبيرٍ عنه يهدف إلى إصابة الحقيقة ولو ادِّعاءً له وجهٍ من الوجوه :

١ـ فإن طابقها مطابقةً كاملة فهو تمام الحق بالنسبة إليها .

٢ـ وإن زاد عليها من غيرها فهو تجاوز وغلو ، وفيه من الباطل بمقدار هذا التجاوز .

٣ـ وإن نقص منها فهو تقصير أو قصور ، فإن كان مع ادعاء المطابقة ففيه من الباطل بمقدار النقص .

٤ـ وإن انحرف عن مطابقتها فهو تجاوز من جهة وتقصير من جهة ، وفيه من الباطل بمقدار التجاوز والتقصير معاً إن كان مع ادعاء المطابقة .

٥ـ وإن خرج عن حدود الحقيقة خروجاً كلياً فلا يطابق منها شيئاً ، فهو إدراك أو تعبير كلُّه باطل .

بعد سرد هذه المسلَّمات العقلية لدى العقلاء ، أقول : أيّاً ما كانت هذه الحقائق فقد جعل الله لكل شيء منها قَدْراً أو حدوداً ، فالحقائق

الشرعية منها كلُّها ذات حدود ، فالنقص عن هذه الحدود تفريط ، والزيادة على هذه الحدود غُلُوٌّ ، والانحراف عنها في العلم معصيةٌ أو كفر ، والتغيير في الحدود الدينية ابتداعٌ وتحريف وقد يكون كفراً ، وإنْ كان هذا التغيير في الأحكام والتشريعات فهو افتئات على الدين وتشريع بما لم يأذن الله به ، وهو عدوانٌ على خصائص الربوبية ، وإنْ كان غلواً في عبادات أجناسُها مشروعة والغلو فيها مشروع ، فهو رهبانية لم يأذن بها الله عزّ وجل .

الالتزام الديني أيها الناس منهج وسط لا يَحيد ، فكلٌّ من التفريط والغلو في الدين أمران مذمومان في الإسلام ، لأن التفريط في الدين يكون بتقليص حدود الله والنقلِ من مساحة حقوق الدين ، أو بمجافاة هذه الحدود وعدم القيام بأي حق من حقوقها ، وهو إن لم يكن من مستوى الكفر والجحود ، فهو اتباع للهوى وإيثار للشهوات وحب للعاجلة ، وقد يصل ذلك إلى مستوى الرغبة بالفجور ، وأما الغلو في الدين فيكون بسبب المبالغة في الاندفاع القوي دون بصيرة مع رغبات دنيوية أخرى ، فالغلو في الدين خروج عن حدود الله بالفعل ، مع زعم الانتماء إليه وشدة الولاء له ، ويكون من سوء التصور وفساده ، أو من الكيد للدين والمكر به ، ويصحب الغلوَّ دائماً جهل وتعصُّب وهوى ، وكلٌّ من التفريط والغلو المذمومين ، يكون في العقائد والمفاهيم الدينية الأساسية تارةً ، وفي الأحكام الشرعية تارةً أخرى ، وقد يكون في السلوك الديني ، أو في الوَلاء للدين ، أو باسم الدين ، وكلٌّ أُولئك له قواعد وأمثلة يضيق المقام عن ذكرها ، وما أحسن ما قاله الإمام الشاطبي الغرناطي صاحب الموافقات : (الوسطُ معظم الشريعة وأم الكتاب) ، وجاء في كتاب الأخلاق للحكيم ابن مسكويه من حكماء الإسلام : (إن الفضائل أوساط بين أطراف ، وهذه الأطراف هي

الرذائل كالكرم وسط بين البخل والإسراف) .

قلت : وهذه الأوساط هي محل تَمَدُّحِ الشعراء والأدباء وتكريم الحكماء .

* * *

ومن أَدَبيَّات هذه القاعدة الجليلة قاعدةِ التوسط في الإسلام ، مما يُعَدُّ من مستثنياتِها لدى الحكماء ، ما قاله مؤرخو دمشق من أن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، أراد أول خلافته أن يهدم الجامع الأمويَّ بدمشق الذي شيَّده الوليد ، ليُعيد بناءه بالطين واللَّبن والخشب والساج على الطراز الراشدي وهو السنَّة ، ولكن اتفق أن زار دمشقَ يومئذٍ وفد من الروم من رجال القيصر فطوَّفوا بالجامع الأموي ، فيما طَوَّفوا من آثار دمشق ومصانعها ، وكان الخليفة عمر بن عبدالعزيز إلى جانب صلاحه حازماً حَذِراً وضَع معهم عيناً له عليهم من أبناء جلدتهم ، يتكلم بلغتهم فَيرطن بها معهم ، فكان مما قالوا فيما بينهم : (يقولُ مَن عندنا إن العرب أمةٌ بدوية لا مدنيةَ ولا عُمران لديهم ، كذبوا واللهِ ، فإذا لم يكن لهم إلا هذا المعبد - وأشاروا للجامع الأموي آنئذٍ - لكفى دليلاً على مدنيتهم وبلوغهم في الحضارة والعمران كلَّ مَبْلغَ) . فلما بلغ ذلك الخلفية عمر بن عبد العزيز قال رحمه الله : (والله لا أهدمه أبداً ، طالما أغاظ الكفار وأعلى شأن المسلمين) وأبقى عليه كما بناه الوليد ، فقد ترك ابنُ عبد العزيز القاعدة ، وجعل الاستثناءَ منها هو عينَ التوسط ، لأنه يؤدي إلى مصلحة أعلى وأتم .

* * *

أمّا بعد ،

فقد عُلم من الدين بالضرورة أنه لا يجوز لأحد من الخلق بعد رسول الله ﷺ ، أن يقول إن هذا مشروع أو محرَّم إلا بدليل شرعي ، ألا وإنه لا كهنوتَ في الإسلام . وليس الدليل حكْراً على أحد دون أحد ، ولكن يجب أن يَضَعَ المسلمُ نَصْبَ عينيه ما كان عليه رسول الله وأصحابُه ، فيتَّبعَ ولا يبتدع ، ويتوسطَ ولا يغلو أو ينحلَّ ، ويسيرَ صراط الله المستقيم لا عِوَجَ فيه ولا أَمْتَ . وما أجمل قولَ الأعرابي للحسن رحمه الله ورضي عنه : (علِّمني ديناً وُسُوطاً ، لا ذاهباً فُروطاً ، ولا ساقطاً سُقوطاً) وأختم حديثي هذا بقولٍ لأحد الحكماء ، وخيرُ ما يُختم به حديثُ العشيات الحكمةُ البالغةُ :

(هلَكَ مَن ادَّعى ، ورَدِيَ من اقتَحَمَ ، اليمينُ والشِّمال مَضَلَّةٌ ، والوُسْطَى الجَادَّةُ) .

* * *

الرَّحْمَةُ

الخلُق الإلهي العظيم ، والنعتُ النبوي الكريمُ ، والبعدُ الإنساني الرفيع في الإسلام

حقيقتها ـ ما جاء فيها ـ حاجة العلماء والدعاة والخلق إليها وعلاج ذلك

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

« سبقت رحمتي غضبي » حديث قدسي أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

هذه نتفٌ جمعتها في الرحمة ومكانتها في الإسلام ، رأيت من الضروري التصنيف فيها في هذا العصر الذي تقاصرت فيه الهمم وضَعُفَت العزائم ، وعمَّ الجهل فيه بمفاهيم الإسلام العامة والخاصة ، وكثر فيه المتعالمون وقلَّ العلماء ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ونظرتُ فوجدتُ موضوع الرحمة من أبرز المواضيع الإسلامية اليوم ، وألصقِها بنَا نحن المسلمين بعامةٍ ، وطلابَ العلم الشرعي الشريف خُدَّامَ هذه الشريعة المطهَّرة بخاصةٍ ، فقد كثر في الناس الكِبْرُ وقَسْوةُ القلب والجبروت والتألُّه ، وتَعَدَّى ذلك بحكم الاختلاط والممازجة إلى أهل العلم ، وهم الذين يُصلحون ما أفسد الناس ، فكيف إذا ساد فيهم

التحاسد والتباغض والتنافر ، شأنَ الجهال ، وابتعدوا عن جوهر الإسلام وحقيقته ، ألا وهي الرحمة التي وصف الله بها نبيه محمداً ﷺ بقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ؟ ! [الأنبياء : ١٠٧] .

والذي أَراه أن مشكلة العصر اليوم هي القدوة الحسنة ، فإذا وُجدت وُجد المجتمع المسلم ، وَوُجد الإصلاح والخير كلُّه ، وإذا فُقِدت فُقِد كلُّ شيء ، كيف لا وقديماً قالوا : « حالُ رجل في ألف رجل خير من وعظ ألفِ رجلٍ في رجلٍ » . فالكلام كثير وما أيسره ، والعمل قليل وما أشدَّه وأصعبَه ، لقد امتلأت الرفوف بالكتب ، من حيث فرغت قلوب أكثر الخاصة ، فضلاً عن العامة ، من الرحمة والتواضع وخفض الجناح لمن اتبعهم من المؤمنين .

فلعل في هذه الصفحات إن شاء الله ذِكْرى منها جَمْع ومنها نبع ، منها ما قمَّشتُه من كتب الأقدمين من جهابذة العلماء والعارفين ، ومنها ما مَنَّ الله به عليَّ . وفوق كلِّ ذي علم عليم . ولعلها تكون نافعةً لي في الدنيا والآخرة ، يتقبلها الله بقبولها ويجعلها من أمهات أعمالي تفضلاً منه وكرماً ، وصدق الله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] .

أولاً ـ ما جاء في التنزيل من آيات الرحمة :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وقال تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد : ١٧] .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، هذا ولكلمة (رحمة) في القرآن عشر نظائر هنَّ :

١ـ النبوة . ٢ـ الإسلام . ٣ـ الرزق . ٤ـ النصر . ٥ـ الفتح .
٦ـ المودة . ٧ـ العافية . ٨ـ المطر . ٩ـ القرآن . ١٠ـ الجنة[(١)]

ثانياً ـ ما جاء في السنَّة المشرَّفة في الرحمة :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يضع الله الرحمةَ إلا على رحيم ، قُلنا : يا رسول الله ، كلنا رحيم ، قال : ليس الرحيم الذي يرحم نفسه وأهله خاصةً ، ولكن الرحيم الذي يرحم المسلمين » رواه أبو يعلى والطبراني .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ ، قال : « من لا يرحم لا يُرحم ، ومن لا يَغفر لا يُغفر له » وفي رواية عنه : « ارحموا تُرحموا واغفروا يُغفر لكم » .

وفي صحيحي البخاري ومسلم مرفوعاً عن أبي هريرة : « من لا يَرحم لا يُرحم » ، و« مَن لا يرحم الناس لا يرحمه الله » عن جرير بن عبد الله .

---

(١) انظر تحصيل نظائر القرآن للحكيم الترمذي ص٤٧و٤٨ . قلت : ويمكن إضافة المغفرة إلى هذه النظائر العشر في قوله تعالى : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

وقال ﷺ وهو على المنبر : « ارحموا تُرحموا واغفروا يَغفر الله لكم ، ويل لأقماع[1] القول المصرِّين الذين يُصرّون على ما فعلوا وهم يعلمون » رواه الإمام أحمد .

وعن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل إنْ كنتم تريدون رحمتي فارحموا خَلْقي » رواه أبو محمد بن عدي في كتاب الكامل اهـ .

وقال الله عز وجل في الحديث القدسي : « أنا الرحمن أنا خلقت الرحم وشقَقْت لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعتُه ومن بتَّها بَتَتُّه » أخرجه الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد .

وروى الترمذي مرفوعاً : « الرحم شِجْنة من الرحمن فمن وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعه الله » .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً في الحديث القدسي : « قال الله عز وجل سبقَت رحمتي غضبي » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قَبَّل النبي ﷺ الحسنَ بنَ عليٍّ رضي الله عنهما وعنده الأقرع بن حابس ، فقال الأقرع : إنَّ لي عَشَرَةً من الولد ما قبّلتُ منهم أحداً ، فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال : « مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرحَم » متفق عليه .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ ، فقالوا : أَتُقبِّلون صبيانكم ؟ فقال : نعم ، قالوا : لكنّا واللهِ ما نُقَبِّل . فقال رسول الله ﷺ : أَوَ أَملِك إنْ كان الله نزع من قلوبكم الرحمة ؟ » متفق عليه .

---

(١) الأقماع : ج قِمْع ، وقمع : لما يستعمل في صب المائعات وفيه تهديد لمن لا يستمع أوامر الشرع ولم يتأدب بآدابه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا صلَّى أحدكم بالنَّاس فلْيُخفِّفْ ، فإنَّ فيهم الضعيفَ والسقيم والكبير ، وإذا صلَّى أحدُكم لنفسه فلْيُطَوِّلْ ما شاء » متفق عليه .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « إنْ كان رسُول الله ﷺ لَيَدَعُ العمل ، وهو يُحب أن يعمل به ، خشيةَ أن يعمل به الناسُ فيُفرضَ عليهم » متفق عليه .

وعنها قالت : نهاهم النبي ﷺ عن الوصال رحمةً لهم ، فقالوا : إنك تواصل ؟ قال : « إني لستُ كهيئتكم ، إني أبيت يُطعمني ربِّي ويسقيني » متفق عليه .

وعن أبي قتادةَ الحارث بن رِبْعيٍّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأَقُوم إلى الصلاة ، وأُريد أن أُطَوِّل فيها فأسمعَ بكاءَ الصبي ، فأَتَجَوَّز في صلاتي كراهية أَنْ أَشُقّ على أُمه » رواه البخاري[1] .

وروي عن النبي صلوات الله عليه مرفوعاً : « الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » .

وأخرج الطبراني بسنده عن النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعاً : « مَثَلُ المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتواصلهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمّى » متفق عليه .

هذا وفي حياة النبي صلوات الله عليه أمثلة كثيرة من الرحمة لعباد الله ، تُنْظَر في السيرة العطرة .

---

(١) انظر الترغيب والترهيب للحافظ المنذري .

مطلب : حديث الرحمة المسلسل بالأولية :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن (تبارك وتعالى)[1] ، ارحموا من في الأرض يرحمْكُم من في السماء » بإثبات الثناء في رواية وبحذفها في رواية أخرى والرواية جاءت بالوجهين وهما ثابتان ، ورواية الرفع أبلغ لأنه دعاء النبي صلوات الله عليه وهو محقَّق الإجابة .

هذا حديث حسن عالٍ أخرجه البخاري في تصنيفه (الكُنى) و(الأدب المُفْرَد) ، وأحمد والحميدي في مسنديهما ، والبيهقي في الشعب ، وأبو داود في سننه والترمذي وقال : حسن صحيح وأورده الحاكم في مستدركه وصححه وهو كذلك بحسب ماله من المتابعات والشواهد اهـ . وله شواهد عن ثمانية عشر صحابياً .

وقال الحافظ العراقي : « هذا حديث حسن رجاله محتج بهم في الصحيح » ، وقد جَمع طرق هذا الحديث جماعة من المتقدمين والمتأخرين منهم : ابن الصلاح والتقي السبكي والحافظ الذهبي وغيرهم .

قلت : والصحيح المشهور أن تسلسله بالأولية إلى ابن عُيَيْنَة دون باقي الإسناد ، ولقد جمعتُ طرقي في هذا الحديث الذي رويتُه عن أشياخي بعضِهم بأولية حقيقية ، وبعضِهم بأوليةٍ نِسْبية في ثَبَتي الذي صدر بعنوان (بُلْغَةُ المستجيزِ في الثبت العلمي الوجيز) فلتُنظَر هناك .

---

(١) والتنزيه قوله (تبارك وتعالى) يتلفظ به القارىء لأنه ثناء يُثنيه لا كلام يرويه اهـ .

ثالثاً ـ الرحمة في حياة السلف الصالح :

دخل عامل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فوجده مستلقياً وأولاده يلعبون على بطنه ، فأنكر ذلك عليه ، فقال له عمر : كيف أنت مع أهلك ؟ قال : إذا دخلتُ سكتَ الناطق ، فقال له : اعتزِلْ فإنك لا ترفق بأهلك وولدك ، فكيف ترفق بأمة محمد ﷺ ؟

رابعاً ـ الرحمة في اللغة والإصلاح :

جاء في اللغة تحت مادة (ر ح م) : (الرحمة : الرِّقّة والتعطُّف ، والمرحمة مثله ، والرَّحِمُ القرابة ، و « الرحمن الرحيم » اسمان مشتقان من الرحمة ، ونظيرهما نديم ونَدْمانٌ ، وهما بمعنىً واحد ، إلا أن الرحمن اسم مختص بالله تعالى لا يجوز أن يُسمَّى به غيره) ، قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[1] .

[الإسراء : ١١٠] .

قالوا : وهي من الله تعالى الرضاء والعفو عمن رحمه[2] .

وجاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة (رحم) (الراء والحاء والميم أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرأفة ، والرحم علاقة القرابة) .

---

(١) مختار الصحاح ص٢٣٨ .

(٢) موجز ثبت الدرر الغالية في رواية الأسانيد الدمشقية العالية ص١٧ .

خامساً ـ محمد الرسُولُ الرحمةُ :

عَلِمَ الله تعالى عجز خَلْقه عن طاعته ، فعرَّفهم ذلك لكي يعلموا أنهم لا ينالون الصفوَ من خدمته ، فأقام بينه وبينهم مخلوقاً من جنسهم في الصورة ، ألبسه من نعته الرأفة والرحمة ، وأخرجه إلى الخلق سفيراً صادقاً ، وجعل طاعته طاعته ، وموافقتَه موافقته ، فقال تعالى : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] ، وقال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] . وهكذا زين الله تعالى محمداً عبده ورسولَه بزينة الرحمة فكان كونُه رحمةً ، وجميعُ شمائله وصفاته رحمةً على الخَلْق ، فمن أصابه شيء من رحمته ، فهو الناجي في الدارين من كل مكروه ، والواصل فيهما إلى كل محبوب ، فكانت حياته رحمةً ومماته رحمةً كما جاء في الحديث الشريف : « حياتي خير لكم وموتي خير لكم »(١) .

حلم وحياء وأمانة وصبر لا تُرْفَعُ فيه الأصوات ، متعادلين ، بل كانوا يتفاضلون فيه بالتقوى ، متواضعين يوقِّرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب .

وكان ﷺ أرأفَ الناس بالناس ، وأنفع الناس للناس ، وخير الناس للناس .

وكان رسول الله أكثرَ تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه ، وتعجباً مما تحدَّثوا به ، وخَلْطاً لنفسه بهم ، ولربما ضحك حتى تبدوَ نواجذه ، وكان ضحكُ أصحابه عنده التبسم اقتداءً به وتوقيراً له ، وكان يتلطف بخواطر

---

(١) رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده والبزار بإسناد صحيح .

أصحابه ويتفقد من انقطع منهم عن مجلسه ، وكثيراً ما يقول لأحدهم : لعلك يا أخي وَجَدت مني أو من إخواننا شيئاً ، وكان إذا فقد الرجلَ من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه ، فإن كان غائباً دعا له وإن كان شاهداً زاره ، وإن كان مريضاً عاده ، وكان يُقبل على أصحابه بالمباسطة ، حتى يظن كلٌّ منهم أنه أعز عليه من جميع أصحابه .

وكان ﷺ يُعطي كل من جلس إليه نصيبه من وجهه وسمعِهِ وحديثِه ولطيف محاسنه وتوجُّهِهِ للجالس إليه ، ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة ، وكان لا يواجه أحداً في وجهه بشيء يكرهه غالباً إلا ما طالب به تبليغ الشريعة ، ولا يتعرض في وعظه لأحد معيَّن بل يتكلم خطاباً عاماً .

قال الصحابة الكرام : « كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا » .

وكان كثيراً ما يقول : « لا تبلِّغوني عن أصحابي إلا خيراً ، فإني أحب أن أخرج إليهم وأنا سليم الصدر » .

ومن شفقته على أمته تخفيفه وتسهيله عليهم وكراهته أشياء مخافةَ أن تُفرض عليهم ، وما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، وكان يقول لأصحابه : « بشِّروا ولا تنفِّروا ويَسِّروا ولا تُعَسِّروا » .

وبالجملة كان أرحم الناس بالناس وهو الرحمة المهداة ، ومن أراد التوسع فعليه بكتب الشمائل[1] .

---

(١) انظر وسائل الوصول في شمائل الرسول للنبهاني ص٨٩ وما بعدها .

وفي الحديث : « إذا أراد الله رحمةَ أمة قبض نبيَّها قبلها فجَعله لها فَرَطاً وسَلَفاً »[1] .

وقيل (رحمة للعالمين) للجن والإنس ، وقيل لجميع الخلق ، للمؤمن رحمة بالهداية ورحمة للمنافق بالأمان من القتل ، ورحمة للكافر بتأخير العذاب . وقيل : هو رحمة للمؤمنين والكافرين إذْ عُوفوا مما أصاب غيرهم الأمم المكذِّبة[2] .

وقال بعضهم : أعطاه اسمين من أسمائه « رؤوف رحيم » وكفى بذلك شرفاً وفضلاً له ﷺ .

سادساً ـ وجوهٌ من رحمة النبيِّ ﷺ بالخَلْق :

كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقاً ، وعرَّفوا حُسْنَ الخُلُق بأنه مخالطة الناس بالجميل والبشر واللطافةِ ، وتحمُّل الأذى والإشفاقُ عليهم ، والتحمُّل والصبرُ وترك الترفُّع والاستطالةِ عليهم ، وتجنُّبُ الغلظة والغضب والمؤاخذة .

وكان رسول الله ﷺ دائمَ البِشر ، لا يقوم ولا يجلس إلا على ذِكْر ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك ، يُعطي كلَّ جلسائه نصيبه ، لا يَحْسَبُ جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، مَنْ جالسه أو فاوضه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرفَ عنه ، ومن سأله حاجةً لم يردَّه إلاّ بها أو بميسور من القول ، قد وَسِعَ الناسَ بَسْطُه وخُلُقُه ، فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواءً ، مجلسه مجلس أُنس ورحمة .

---

(١) رواه مسلم . والفَرَط هو الذي يتقدم الواردين ليُهَيِّىءَ لهم ما يحتاجون إليه عند نزولهم في منازلهم .

(٢) انظر الشفا للقاضي عياض ج١ ص٥٣ وما بعدها .

سابعاً ـ (الرحمة والرحمن والرحيم) في الفكر العرفاني عند ابن عربي :

أ ـ الرحمة هي منح الوجود للموجودات ، وهي منح كل موجود وجوده الخاص به في الصورة التي تقتضيها طبيعتُه ذاتُها ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٥٠] فهي النَّفَس الرحماني أو نَفَسُ الرحمن عند ابن عربي .

فالرحمة هي الوجود في مقابلة العدم بعد الافتقار إلى الحق ، وذلك لأن الأسماء الحسنى افتقرتْ إلى الذات الإلهية في ظهور أعيانها ، فرحمت الذاتُ الإلهية الأسماء ورضيت بوجود العالم ، ثم أوجدتْه فكان من حضرة الرحمة وفيض المنة . قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] . فالرحمة الإلهية وسعت كلَّ شيء وجوداً وحكماً . . ولكنَّ هذه الرحمات على كثرتها ، ترجع إلى أربع رحمات هي : الرحمة الامتنانية ، الرحمة الواجبة ، الرحمة السابقة ، الرحمة الخاصة ، وأما في الإنسان فهي الرحمة الطبيعية والرحمة الموضوعة .

فالرحمة الامتنانية هي الرحمة العامة من المِنّة ، سميت بذلك لأنه ينالها كل شيء دون نظر إلى شيء استحقها به .

ويقابلها الرحمة الخاصة ، فإذا كان للحق رحمة عامة يرحم بها الخَلقَ جميعَهم دون أن تتقيّد بصفة أو نعت في شخص المرحوم ، فهذه الرحمة العامة الشاملة لجميع الخلق ، يقابلها رحمة خاصة بكل فرد من الموجودات لا يشاركه فيها أحد ، تقتضيها طبيعته نفسها المكوَّنة لمناسبة خاصة مع الحق ، وهي واجبة . وهكذا يرحم الله العبد إما بالرحمة الخاصة وهي الواجبة ، أو بالرحمة العامة وهي رحمة الامتنان .

أما الرحمة السابقة فهي الخاصة بالإنسان من بين سائر المخلوقات ،

أخذاً من الحديث القدسي « رحمتي سبقت غضبي » وذلك هو فيصل التفرقة بينهما وبين الرحمة الواسعة الامتنانية التي تسع كل شيء ، فما سبقت رحمتُه غضبه إلا في هذه النشأة الإنسانية ، وأما ما عداها فمن كون رحمته وسعت كل شيء لا للسبق ، فللإنسان دون غيره الرحمة الواسعة والرحمة السابقة ، فتطلبه الرحمة من وجهين ، وليس لغير الإنسان هذا الحكم من الرحمة .

وأما الرحمة الواجبة ، أو الرحمة المقيدة أو المكتوبة أو الرحيمية ، فهي الرحمة التي قيّدها الحق بصفة كالتقوى في المرحوم مثل ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] . و﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، وترجع تسمية هذه الرحمة بالرحيمية ، نظراً لأن متعلَّقها الاسم (الرحيم) الذي له تقييد الرحمة بصفة مخصوصة في المرحوم ، بخلاف الاسم (الرحمن) الذي له عموم الرحمة .

بقي لدينا الرحمة الطبيعية والرحمة الموضوعة .

فهاتان الرحمتان تتعلقان بالراحمين من المخلوقات ، فالراحم من العباد مَنْ له رحمتان : رحمة طبيعية وهي ذاتية له اقتضاها مزاجه ، ورحمة موضوعة فيه بخَلْقه على الصورة ، وبالرحمة الطبيعية تقع الشفقة لا بالرحمة الموضوعة ، فإن الرحمة الإلهية الموضوعة يصحبها في العبد العزة ، فهي لا عن شفقة ، بل يرحم صاحبها بالمشيئة ، أما الرحمة الطبيعية عنها تكون الشفقة[١] .

---

(١) انظر الفتوحات ج٤ ص٤ وفصوص الحكم ١/ ١٧٧ و١٧٨ ، وعنقاء مغرب وبُلْغَة الغَوّاص ومراتب التقوى والمقصد الأتم في الإشارات ، وانظر : المعجم الصوفي ص٢٥١ وما بعدها.

ويرى بعضهم أن رحمة الله العامة هي الإيجاد ، ورحمة الله الخاصة هي التوفيق والإمداد .

ب ـ الرحمن أو الرحيم :

الاسم (الرحمن) مِنْ حيث إنه جامع للأسماء الإلهية كلِّها ، وله مرتبة الإحاطة والكمال بالنسبة إليها يُرادف الاسم (الله) ، ومن حيث إنه مشتق من الرحمة أي الوجود ، يقترب من الاسم (الرحيم) ويفترق عنه بوهبه المرحومية : الرحمة الامتنانية في مقابل رحمة الرحيم : الواجبة . فرحمة الرحمن امتنانية ، ورحمة الرحيم واجبة ، ولهذين الاسمين الله والرحمن مرتبة الإحاطة والكمال بالنسبة إلى ما سواهما من الأسماء . فالرحمن لإيجاد الأعيان ، والرحيم لتعيين المراتب .

ثامناً ـ الرحمة في الشعر العربي :

نَظَم بعض الشعراء المتقدمين من العلماء حديث الرحمة المسلسل بالأولية ، فقال الحافظ ابن حجر العسقلاني :

إنَّ مَنْ يرحم أهل الأرض قد ... آن أن يرحمه من في السما
فارحمِ الخَلْقَ جميعاً إنما ... يرحم الرحمنُ منا الرُّحَما

وللحافظ الزين العراقي :

إن كنتَ لا ترحم المسكين إن عَدِما ... ولا الفقير إذا يشكو لك العُدُما
فكيف ترجُو من الرحمن رحمتَه ... وإنَّما يرحَم الرحمنُ مَنْ رحما

ولشيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري :

مَنْ يرحم أهل السُّفْل يرحمه العليّْ ... فارحمْ جميعَ الخَلْق يرحمْك الوليّْ

وللشيخ رضوان محمد العَقَبي :

الحُبُّ فيك مسلسَل بالأوّلِ ... فَاحنُن ولا تسمع كلام العُذَّلِ
وارحم عباد الله يا مَن قد علا ... من يرحمِ السُفْليَّ يَرْحمْهُ العَلي

ولأبي الحسن علي بن هبة الله بن عساكر ، وفيه لطيفة ذكرها الشيخ عبد الباقي في ثَبَته ، قال : واتصل سندنا مسلسلاً ، كلُّ راو يقول عن شيخه « وهو أول شعر سمعته منه إلى قائله » وهو الحسن علي بن هبة الله بن عساكر :

بادِرْ إلى الخير يا ذا اللُّب مغْتَنما ... ولا تكن من قليل الخير مُحْتشما
واشكر لمولاكَ ما أَوْلاك من نِعَمٍ ... فالشكر يسْتوجب الأفضال والنِّعَما
وارحم بقلبك خَلْقَ الله وارْعَهُمُ ... فإنَّما يرحم الرحمن مَنْ رَحِما

وللكمال محمد بن محمد البارزي :

عليك بتقوى الله سراً وجهرةً ... لأنك مسؤول وربُّك عالِمُ
ولا تخشَ إلاّ اللهَ وارحم عبادَه ... فرحمتُه ذخرٌ لمن هو راحمُ

وقال العلامة ابن عابدين الكبير صاحب حاشية رد المحتار على الدر :

عليكَ بإسعاف الضَّعيف ونصرِه ... فما عمل إلاّ به الله يعلمُ
وكن راحماً أهلَ البسيطة كلَّهم ... فمن يرحم المخلوقَ لا شكَّ يُرحَمُ

وقال كذلك :

أيها الناسُ أطيعوا ربَّكم ... وصِلُوا القُربى جميعاً والرَّحمْ
وارحَموا من في الأراضي إنَّما ... يَرحم الرحمن منكُم مَنْ رَحِمْ(١)

---

(١) انظر ثبت ابن عابدين ص٧٣ وما بعدها .

وللشهاب المنصوري :

أَخلِقْ بمَنْ يَظلم أن يُظلما ... وبالذي يرحم أن يُرْحَما
من لم يكن يرحم بالقلب مَنْ ... في الأرض لم يرحمْه مَنْ في السَّما[1]

وقال الشاعر :

لن يبلغَ المجدَ أَقوامٌ وإن شرفُوا ... حتى يَذِلُّوا وإنْ عَزُّوا لِأَقوامِ
ويُشتَموا فترى الألوان مُسْفِرةً ... لا صفحَ ذُلٍّ ولكن صفحَ إكرامِ

وقال الشاعر أيضاً :

سأُلزِم نفسي الصَّفح عن كلِّ مذنبٍ ... وإنْ عظُمَتْ منه عليَّ الجرائمُ
فما الناس إلاّ واحد من ثلاثةٍ ... شريفٌ ومشْروفٌ ومثلٌ مقاوِمُ
فأمَّا الذي فَوْقي فأَعْرف قدرَه ... وأَتبع فيه الحقَّ والحقُّ لازِمُ
وأمَّا الذي دُوني فإنْ قال صنْتُ عن ... إجابته نفسي وإنْ لام لائمُ
وأما الذي مثلي فإن زلَّ أو هَفا ... تَفَضَّلتُ إنَّ الحُرَّ بالفضل حاكم[2]

وجاء في الإنجيل (أفلح أهل الرحمة لأنهم سيُرحمون)[3] .

تاسعاً ـ حاجة العلماء والدُّعاة والخَلْقِ إلى الرحمة :

عن مالك رضي الله عنه في الموطَّأ بلغه أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يقول : « لا تُكثِروا الكلامَ بغير ذكر الله فتقسو قلوبُكم ، فإن القلب القاسيَ بعيد من الله ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا إلى ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنَّما الناس مبتَلى ومعافَى ،

---

(١) انظر ثبت الكزبري ص٣٤ .
(٢) انظر المستطرف ص١٩٤ .
(٣) المخلاة ص٧٧ .

فارحموا أهلَ البلاء واحمدوا الله على العافية » ذكره في الموطأ[1] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « الكِبْر بطَر الحقِّ وغَمْط الناس » رواه مسلم والترمذي .

ألا ما أحوج العلماء الذين هم القدوة والدعاة إلى الله عز وجل ، ما أحوجهم إلى رحمة الخلق والتماس المعاذير لهم في طاعة الله عز وجل ، فخير هذه الأمة علماؤها وخير علمائها رحماؤها فلا تكونوا من جبابرة العلماء .

وأما أحوجَ الخلق كُلهم إلى الرحمة ، بها يتراحمون وبها يتواصلون وبها يتحابون . وهذا شأن الإسلام الذي بُني على الرحمة ، وهو دين الرحمة ، ولقد قلت ، والله الموفِّق :

هل وَجَدْتُم فيما صَنَعْتُم عِلاجاً فَلِمــاذا لــم يَشْبــع الفقــراءُ ؟!
ليس تحت السَّماء أرحمُ من دينٍ رحيـــمٍ ، رجــالُــه رُحمــاءُ

أما بعد ،

فهذه باقةٌ فوَّاحةٌ من زهور الإسلام ، تُبيِّن لنا بعبيرها وأنوارها ولألائها قيمةَ الرحمة في المنهج الإسلامي ، وأَنها البُعْدُ الإنسانيُّ الرفيعُ في هذا الدين القَيِّم ، فهي رحمةُ المرء نفسَه ، ورحمتُه أهلَه وقومَه وأصحابَه وأهلَ وطنه ، بل ورحمةُ الكافة ، وما أظن أن شِرعةً غيرَ الإسلام فيها هذا المعنى الجليلُ ، يُمثِّل عِمادَ البناء وحجرَ الزاوية ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء .

أَلاَ فاجتهدوا يا معشر إخواني من طلبة العلم الشريف ، أن تتحقَّقوا في

---

(١) انظر الترغيب والترهيب ج٤ ص١٠ .

سُلوككم ومنهج حياتكم بهذا المبدأ العظيم (الرحمة) فترحموا أنفسكم بالهداية والتزكية والمجاهدة ، وترحموا من هو أكبر منكم من مشايخكم وأسانيدكم بتوقيرهم وخفض الجناح لهم ، وبالحرصِ على الانتفاع منهم ، وترحموا من هو مثلكم بترك الحسد والشحناء والبغضاء ، وترحموا من هو دونكم بالشفقة والعطف ، وترحموا العامة بالتيسير والتخفيف من غير تلفيق ولا فسق ، وترحموا الخاصة بالإفادة والاستفادة ، وترحموا أهلكم بالرعاية الصحيحة ، وترحموا أهل البلاء بالنصح مع الشفقة ، وترحموا الكافَّة بالتواضع وإرادة الخير لهم ، وبالجملة وطِّنوا أنفسكم على أن تكونوا رحمةً للخَلْق ، كما كان نبيكم محمد ﷺ القُدوة الحسنة بأقواله وأفعاله وأحواله .

عاشراً ـ علاج ذلك عند الحكماء :

وعلاج ذلك فيما أرَى ـ والله أعلم ـ في إرجاع النفس الإنسانية إلى حقيقتها ، ألا وهي (العبودية) ، ورداؤها الفقر واللَّجأ إليه سبحانه وتعالى ، فقد جعل المولى تبارك وتعالى مفتاح الرحمة بيده وحده ، وجعل ذلك إليه . قال تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [فاطر : ٢] . فمن وقف على أعتاب العبودية له وحده دون غيره ، وقرع باب الفقر على الله تعالى الغني ذي الرحمة ، فإنه واجد لا محالةَ الباب مفتوحاً ، والرحمةَ تنبع من خزائن الحق ينبوعاً ، وهذا معنى من معاني الحديث الشريف : « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنتَ فاستعن بالله » . وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] فكن له عبداً يكنْ لك رباً ، وافتقرْ له وحده يُغْنِك من عطائه ، واسأله سؤالَ ذل وعبودية ولَجأٍ إليه وحده يستجب لك ، لأنه تعالى عند ظن عبده به .

هذا هو العلاج الوحيد لتوليد الرحمة في قلب العبد ، ليكون من الرحماء ولا علاج غيرُه[1] .

أخرج ابن حبان في الضعفاء والخرائطي في مكارم الأخلاق والطبراني في الأوسط والعقيلي في الضعفاء ورواه الحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال النبيُّ ﷺ فيما ورد عنه : عن الله تعالى : « اطلبُوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم ، فإني جعلت فيهم رحمتي ، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فإني جعلت فيهم سخطي »[2] .

* * *

---

(١) يُراجع في هذا الباب كتاب (الأخلاق) لابن مسكويه ، والتنوير في إسقاط التدبير لابن عطاء الله السكندري .

(٢) انظر تخريج العراقي للإحياء ج٣ ص٢١١ .

مقولات للعلماء بالله عز وجل في الرحمة :

١ـ (ومن آداب العلماء نصح من علَّموه والرفق بهم وتسهيل السبيل عليهم وبذل المجهود في رفدهم ومعونتهم ، فإن ذلك أعظم لأمرهم وأسنى لذكرهم وأنشر لعلومهم) .

٢ـ (ومن آدابهم ألاّ يُعنِّفوا متعلماً ، ولا يحقروا ناشئاً ولا يستصغروا مبتدئاً ، فإن ذلك أدعى إليهم وأعطف عليهم وأحثّ على الرغبة فيما لديهم . وروي عن النبيِّ ﷺ أنه قال : عَلِّموا ولا تعنفوا فإن المعلم بالرفق خير من المعنِّف) ص١٢٨ منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين .

٣ـ ومن آدابهم ألاّ يمنعوا طالباً ولا يُؤيسوا متعلماً .

٤ـ قال المناوي في شرح حديث (وقِّروا من تتعلمون منه) : فحق المعلم أن يجري طلبته مجرى بنيه فإنه لهم في الحقيقة أب .

٥ـ وقال عمر بن الخطاب : (تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تَعلمون منه ، وليتواضع لكم من تعلمونه ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم) .

المنهج المقتَرح بين الزرع والسَّقْي والحصاد

تمهيد :

لابد لكل منهج يراد له البقاء من مراحل ثلاث : الزرع ، والسقي ، والحصاد ، كالنبات تماماً وكل كائن حي .

والمنهج المقترح اليوم بين هذا وذاك يشتمل على مايلي :

أولاً : ما علينا ، وما ليس علينا تجاه ذلك .

ثانياً : الأساس النظري للمنهج المقترح .

أولاً ـ ما علينا وما ليس علينا تجاه ذلك :

كلمة حق أريد أن أقولها بين يدي الحقيقة والتاريخ هي :

(إن بناء الحضارة الجديدة ذات الجوهر الإسلامي بالشكل المعاصر ، زرع علينا بذره وليس علينا حصاده) .

وهذا واقع الدعوة الإسلامية الأولى ، فقد زرع الرسول العظيم محمد ﷺ ، وأصحابه السابقون من المهاجرين والأنصار ، ولم يقطفوا مما زرعوا في الدنيا ، وإنما قطفوا رضوان الله ، وقطف من بعدهم أُلوف من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، لما دخلوا في دين الله أفواجاً ، قطفوا زهرتي الحياة الدنيا والآخرة ، ورتعوا في بحبوحة جنتين من جنات الله عز وجل : جنة الدنيا وغضارتها والآخرة ومثوبتها ، ﴿ وَلِمَنْ

خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور : ٥٥] .

وهذا هو المعنى الذي أكّد عليه حديث عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه ، حين قدم من الشام نصرانياً يختبر أمر النبيّ ﷺ هل هو ملك أم نبيّ . . . فدخل عليه المسجد بين أصحابه وعرّفه بنفسه ، فأخذ رسول الله صلوات الله عليه بيده وذهب به إلى داره ، وفي الطريق استوقفته عجوز تسأله عن بعض أمر دينها ، فأحنى لها ظهره ووقف مليّاً حتى فرغت من سؤالها ، فقال عدي في نفسه : (والله لو كان هذا الرجل ملكاً ما وقف لعجوز في قارعة الطريق ، هذه واحدة) ثم دخل رسول الله ﷺ داره ، ودفع لعدي وسادةً جلس عليها تكريماً له ، ثم قال فيما معناه : « لعل الذي يمنعك من الدخول في هذا الدين يا عديّ ما ترى من ضعف أهله وقلتهم ؟ والله ليتمنَّ الله هذا الأمر ، حتى تسير الظعينة من بصرى إلى صنعاء ، لا تخشى إلا الله والذئب على غنمها .

لعل الذي يمنعك من الدخول في هذا الدين يا عدي ما ترى من فقر أهله ومسكنتهم وقلة ما بأيديهم من عرض الدنيا ، والله ليتمنَّ الله هذا الأمر ، حتى يخرج الرجل بزكاة ماله لا يجد من يأخذها منه . . . لعل الذي يمنعك من الدخول في هذا الدين يا عدي ما ترى من اجتماع المشركين علينا وإحاطتهم بنا ، والله ليتمنَّ الله هذا الأمر ، حتى ترى القصور البُلْق في الشام ومدائن كسرى » . قال عدي فدخل الإسلام في قلبي ، فأسلمت على يد المصطفى ﷺ ، فكان يحدث فيقول : (وهأنا قد رأيت الثِّنْتين ـ أي القصور البلق في الشام ومدائن كسرى ، وسير الظعينة مع الأمن ـ قال : وأنا أرجو الثالثة ، لكنه لم يرها رضي الله عنه ،

وإنما حصلت زمن خلافة سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه . فكان الرجل يخرج بزكاة ماله فلا يجد أحداً يأخذها لاغتناء الناس ، وجاءت إلى الشام زكاة إفريقية ، فأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز أن توزع على فقراء المسلمين ، فلم يجدوا في أنحاء العالم الإسلامي قاطبة فقيراً واحداً يأخذ زكاة المال وهو محتاج ، كما لم يجدوا إنساناً يكذب فيقول إنه فقير وهو غني ، يبتغي بكذبه هذا عرضاً زائلاً من عرض الحياة الدنيا . فأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز ببناء بيمارستانات بها (أي مشافي) وبتكليف أناس بالأجر من هذا المال يقودون العميان . وانظر إن شئت سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم .

أقول : علينا أن نزرع فقط ، أما الحصاد فليس من شأننا ، قد نراه وقد لا نراه ، وليس شرطاً على الله تعالى أن من زرع حصد بذاته وشخصه ، بل إن الأمة بقضّها وقضيضها هي التي تزرع على يد بعض رجالها ، وتحصد على يد رجال آخرين ، فالأمة هي الموعودة بالنصر والتأييد والخلافة عن الله عز وجل ممثلة بجيل من أجيالها ، وليس الموعودون أشخاصاً بأعيانهم ، وتلك سنة من سنن الله عز وجل في خلقه ، وناموس من نواميس الوجود ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

ثانياً ـ الأساس النظري للمنهج المقترح :

بعد الزرع تجب العناية بالسقي والمتابعة ، وذلك يتمثل برصد لخصائص الفكر الإسلامي ، وباعتبارها مجتمعة أساساً نظرياً للمنهج المقترح ، وإني إذ أقرر هذا لأعلن على الملأ أن الله تعالى وفقني ، بعد طول الدرس والتمحيص وترديد الفكر ، إلى كشف اللثام عن وجوه هذه الخصائص للفكر الإسلامي في كتاب لي أسميته (خصائص الفكرالإسلامي) أحيل عليه المفكرين والدارسين ، لعله يكونُ مفتاحاً

للدراسات المستجدة في هذا الميدان ، وقد طبع حديثاً بدمشق في زهاء مئتي صفحة من القطع العادي ، وبالجملة فإن هذه الخصائص للتصور الإسلامي والسلوك ، هي السبيل الوحيدة لتعهّد هذا الزرع وسقايته والقيام عليه بتبصّر وأناة من المربين للأجيال الصاعدة ، الذين في عنقهم تقع أمانة التربية الإسلامية الصحيحة القائمة على أسس موضوعية .

* * *

منهج علمي لتربية شاملة
على أساس من الإسلام وضمن مقولاته

هذا البحث يشتمل على أمرين :

الأول منهما : (قيام المنهجية العلمية على أسس موضوعية معاصرة) .

والثاني منهما : (التربية الإسلامية الشاملة بين النظرية والتطبيق) .

الأمر الأول : (قيام المنهجية العلمية على أسس موضوعية معاصرة) :

وبالاستقراء وجدت أن هذه الأسس الموضوعية المعاصرة ، لا تخرج في حال من الأحوال عن واحدة من خمس :

١ـ الصحة .

٢ـ التوازن .

٣ـ الانتقاء .

٤ـ السعة .

٥ـ والعمق الفكري .

١ـ فالأساس الأول هو الصحة :

وغير خافٍ على العقلاء ما لهذا الأساس من اللزوم والضرورة الداعية إليه ، في كل الوجوه والمراحل وعلى جميع الجَبَهات ، نظراً لقيمة هذا العنصر وتأثيره إيجاباً وسلباً على كل ما وراءه من عنصر وأساس وبناء ، فما لا صحة له عند العقلاء لا يعتدّ به مهما كان نوعه ومُؤَدّاه .

ولا أقصد بكلامي هذا إلى الصحة بمعنى (صحة الكلام) أو (صحة التعبير عنه) بل صحة المؤدى ومصداقيته لدى العقلاء في حيّز الواقع ، فكل منهجية علمية مقترحة لأية مقولة إسلامية ، ولاسيما لمقولة من أهم المقولات الإسلامية وأرفعها مكانة وشأناً ، كالتربية الشاملة على أساس الإسلام وقضاياه ، يجب أن تكون صحيحة مئة بالمئة نقلاً وعقلاً ، بحيث لا تخالف عن صحيح المنقول ولا صريح المعقول ، ذلك لأنها أساس الأسس ، وحجر الزاوية متى كان متيناً كان ما بعده قوياً متماسكاً ، وإلا كان ما وراءه أوهن وأوهى .

٢ـ والأساس الثاني هو التوازن :

إن مصطلح التوازن هذا يجمع إلى التوسط والاعتدال ، واستقامة الدّقّة ، وصحة السير ، ومرونة النهج ، ووضوح السمت ، فلا عوج فيه ولا أَمْت .

فالمنهجية العلمية أحوج ما تكون إلى هذا التوازن ، لتداوي الحالات المستعصية ، فتعالجها بعلاجها المناسب دونما زيادة ولا نقص .

وإنني لا أستطيع أبداً أن أتصوّر منهجية علمية بلا توازن ، فالتوازن حاجة تقتضيها الحياة الإنسانية العاقلة المفكرة ، بَلْه الحياة الإنسانية الفطرية الجِبِلِّية .

إن كل قضية من القضايا العقلية ، تحتاج في معالجتها إلى التوازن لقيامها على أحسن وجه ، فكيف إذا كانت قضية من القضايا الفكرية الإسلامية ؟ والإسلام دين قام على التوازن في كل شؤونه وقضاياه العامة .

وقد عرفنا صحة المنهجية العلمية ، بمعنى مصداقيتها لدى العقلاء . أما توازنها فيكون بقدرتها على الاتجاه على شتى المحاور ، وإلى شتى الاتجاهات بأقصى سرعة ممكنة ، مع سلامة السمت ، ووضوحه واستوائه .

٣ـ والأساس الثالث هو الانتقاء :

سمعت من أشياخي علماء الشام رضوان الله عليهم قولهم في زمن الدرس والتحصيل يرددونه : « العلم أكثر كل شيء فخذوا منه أحسنه » .

أقول : لا أستطيع أن أُطلق كلمة منهجية علمية بغير انتقاء ، لأنها لا تكون منهجية أي (طريقة في العمل ذات منهج علمي محدد معلوم) إلا إذا كان لدى هذه الطريقة العملية قدرة على الانتفاع ، فقد ثبت أن كل القضايا الفكرية ليست من البسائط ، بل هي من المركبات شأن قضايا الحياة بعامة ، وكل تركيب في هذه القضايا إن كان اعتباطاً فهو ليس تركيباً علمياً ، بل هو تركيب اعتباطي (اتفاقي) ، وإذا أردنا أن يكون علمياً وجب أن يكون لديه قدر من الانتقاء ، بحيث يأخذ من كل لون بطرف ، ومن كل فن بخبر ، ومن كل نوع من أنواع البسائط الفكرية بمعيار ، شأن البنّاء الماهر الذي يقيم بناءً مركباً يركبّه من هذه الأشياء الموفورة لديه بنسب متفاوتة معلومة ، ينتقي أحسنها وألصقها بالحاجة ، وأقربها لنعرض المرجو منها .

وكذلك بناء منهجية علمية أو مقولة فكرية إسلامية ، يحتاج إلى مثل ما احتاج إليه البناء الحسّي في تركيبه ، وذلك هو المسمى بالانتقاء .

ولولا هذا الانتقاء لكان عمل العاملين وبناء البنائين ، وتفكير المفكرين وتنظير المنظرين ، ضرباً من الاعتباط والعبث لا طائل تحته ، ولا يستقيم له وجه ، ولا يأتي منه شيء .

٤ـ والأساس الرابع هو السَّعة (الشمولية) :

إن كل منهجية علمية تحتاج في قيامها وتحكمها في القضايا المنوطة بها إلى الشمولية ، وهو ما عبرت عنه بالسعة ، وهو التعبير القرآني ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ [الطلاق : ٧] ، ذلك لأن هذه الشمولية إنما تعني بالضرورة استيعاب هذا المنهج ، واستيفاءه الأمور والأحداث صغيرها وكبيرها ، قاصيها ودانيها ، دقيقها وجليلها ، بحيث لا يعزب عنها أمر ، ولا يندّ منها شيء ، فيصدق عليها حينئذٍ أنها واسعة شاملة مستوعبة .

وغنيٌّ عن البيان أن ما نحن بصدده ، وهو ما أطلقنا عليه (الطريقة العملية ذات المنهج العلمي المحدد المعلوم) أحوج ما يكون لهذه السعة والشمولية ، نظراً لافتقارها إلى ذلك وشدة حاجتها إليه .

٥ـ وأما الأساس الخامس والأخير ، فهو العمق الفكري :

وهو أهمها على الإطلاق بعد الصحة ، فلا خير في أية منهجية علمية ولا غَناء ، إلا إذا كان لها من العمق الفكري ما يغنيها ويجعلها صالحة للبقاء .

إن السطحية في التفكير ، لا سيما في التماس منهج علمي موضوعي مؤدّاه القصور أو الغلط ، القصور عن الوفاء بالغاية ، أو مجانفة الصواب

في البحث ، وكلاهما مطعن في هذا المنهج يجعله غير علمي يفتقر إلى الموضوعية كل الافتقار .

إن السعة في المنهجية العلمية لأية مقولة إسلامية ، تقتضي عمقاً في التفكير السَّوي ويدفع عنها مرض الضَّحالة الفكرية ، وسطحية التأمل والافتقار إلى التجارب ، وخَواء المضمون .

هذه المعايير الخمس هي أبرز الدعائم التي تقوم عليها أية منهجية علمية ، لأية مقولة إسلامية بعامة ، مهما كان شأنها .

وإذا صح التعميم جاز أن نجعلها كذلك مقومات المنهجية العلمية التي تقوم عليها مقولة التربية الإسلامية الشاملة ، كضرب من المقولات الإسلامية العديدة التي تفتقر إلى هذه المقومات الخمس ، بل ربما كانت إليها أحوج ولها أفقر ، لأن هذه المقولة دعامة متينة راسخة ، يمكن أن تقوم عليها الصحوة الإسلامية المنتظرة ، ومن بعدها الحضارة الإسلامية الجديدة المقبلة إن شاء الله ، وبقدر قيمة البناء تعظم قيمة دعائمه .

الأمر الثاني : (التربية الإسلامية الشاملة بين النظرية والتطبيق) :

ولهذا المبحث أربع درجات ، جعلتها سلّماً ومعراجاً .

١ـ الدرجة الأولى : (الخطّ العريض للإسلام) :

يتبعه مقولة موجزة فيما يصح الخلاف فيه بين المسلمين وما لا يصح .

أما الخط العريض للإسلام ، فهو القاعدة الثابتة الراسخة ، والمعيار الأكبر لكل ما اختلف فيه ، وما سيختلف فيه إلى يوم القيامة ، وكل تربية

إسلامية لم يلاحظ بها هذا المعيار ويؤخذ بعين الاعتبار ، فهي بَوار وخَواء لا خير فيها ولا خير يأتي منها .

فالوصية المعتبرة هنا هي أن يكف المسلم لسانه عن أهل القبلة ، ما داموا قائلين : (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) غير مناقضين لها ، والمناقضة تحصل بتجويزهم الكذب على رسول الله ﷺ ، والإيمان باليوم الآخر ، وما عدا ذلك فروع . ولا تكفير في الفروع إلا في مسألة واحدة وهي : أن ينكر حكماً ثبت عن النبي ﷺ بالتواتر القاطع ، وأجمعت عليه الأمة بسائر طوائفها ، كإنكار وجوب الصلوات الخمس أو صوم رمضان ، وكذا لو قال قائل : (إن البيت الذي بمكة ليس هو الكعبة التي أمر الله بالحج إليها) فهذا كفر ، لأنه قد ثبت تواتراً عند جميع الخلق الذين بلغتهم دعوة النبي صلوات الله عليه خلاف ما يقول هذا المدعي .

هذا ، ومدرك التواتر الصحيح وغير الصحيح ، دقيق ، وقد يخفى على كثير ، إذ قد يظن كثير من الناس أن المستفيض متواتر ، وهذا خطأ ، لأن تعريف التواتر الصحيح هو (ما نقله جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عن شيء أدركوه بأنفسهم إلى جماعة أخرى مثلها ، وهكذا يستمر منقولاً جماعة عن جماعة حتى يصل إلينا) ، وذلك كالعلم بوجود رجال قالوا عن أنفسهم إنهم رسل الله إلى خلقه مؤيدين بالمعجزات منذ البعثة المحمدية إلى أول الدنيا ، (لأن باب الرسالة والنبوة أُغلق بسيدنا محمد ﷺ ، فكل من ادّعى ذلك بعد بعثة سيدنا محمد ﷺ ارتد وكفر والعياذ بالله تعالى ، فإما أن يستتاب أو يقتل حصراً ، وبذلك كفرت فرق كثيرة ادّعى أصحابها هذا الإفك المبين) .

أما ما يظن أنه تواتر ، وهو في الحقيقة ليس منه فهو كثير ، حصل في

عصور مختلفة ، ولكنه لم يحصل به العلم القاطع لدى الجميع ، وذلك كاتفاق جمع من الناس على أمر جمعتهم على الاتفاق عليه عوامل خاصة ، كرابطة تجمعهم أو تعصب يحكمهم . ومن ذلك ما تزعمه فرق إسلامية كثيرة من أمور نخالفهم فيها ، ولكن لا نكفرهم بها ، لأنهم زعموا ذلك عن تأوُّل ، وذلك لأن من تأوَّل لا يكفّر ، وكيف يكفر المؤول ؟ وما من فريق من أهل الإسلام إلا وقد اضطر إلى التأويل ، والتكذيب هو أن ينفي وجود الأشياء التي ورد بها الشارع بأي نوع من أنواع الموجودات ، المصطلح عليها ، ويزعم أن ما قاله صاحب الشرع لا معنى له ، وإنما هو كذب محض ، أراد به صرف الناس عن شيء يريده .

هذا ، وإن شئت التوسع في هذا فارجع إلى رسالة الإمام أبي حامد الغزالي (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) رحمه الله .

ويقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في شرح الأصفهانية : (وخاصة أهل السنة المتبعين للرسول ﷺ هي أنهم يَتْبعون الحق ، ويرحمون من خالفهم عن اجتهاد ، حيث عذره الله ورسوله) .

وجاء في كتاب (مقالات الإسلاميين) للإمام أبي الحسن الأشعري في أول كتابه : (اختلف المسلمون بعد نبيهم ﷺ في أشياء ضلّل فيها بعضهم بعضاً ، وتبرَّأ بعضهم من بعض ، فصاروا فرقاً متباينين إلا أن الإسلام يجمعهم) .

وأما الفقهاء ، فقد نقل عن الإمام الشافعي صاحب المذهب رضي الله عنه أنه قال : (لا أَرد شهادة أهل الأهواء إلا الخَطّابيّة ، فإنهم يعتقدون حل الكذب) .

أما الإمام أبو حنيفة إمام الأئمة الفقهاء رضي الله عنه ، فقد حكى

الحاكم صاحب المختصر في كتاب (المنتقى) عنه : (أنه لم يكفّر أحداً من أهل القبلة) .

وحكى أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي عن الكرخي مثله ، ثم قال الرازي الجصاص : (والذي نختاره أن لا نكفر أحداً من أهل القبلة) ، واستدل على ذلك بأدلة منها قوله : (لأن الكفر حكم شرعي يتلقى عن صاحب الشرع ، والعقل قد يعلم به صواب العقل وخطؤه وليس كل ما كان خطأً يكون كفراً ، كما أنه ليس كل ما كان صواباً في العقل تجب في الشرع معرفته) .

وأختم الحديث عن هذا المبحث بما جاء في المستصفى للإمام أبي حامد الغزالي حجة الإسلام رحمه الله ، أن عليّاً بن أبي طالب رضي الله عنه ، استشاره قضاته في البصرة ، في القضاء بشهادة أهل البصرة من الخوارج ، أو عدم قبول شهادتهم ؟ فأمرهم بقبولها كما كانوا قبل حربهم له ، لأنهم إنما حاربوا عن تأويل ، وفي رد شهادتهم تعصب ، وإثارة خلاف .

رضي الله عنك يا بن أبي طالب ، ووفق محبيك لاقتفاء أثرك حتى ينقذ الله هذه الأمة مما هي فيه من شقاق بعيد .

وصدق الله تعالى إذ يقول في كتابه المجيد : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٥] .

ولا يذهبنّ بك الوهم ، فتحسب أن كل فرق المسلمين على صواب ، لا فالأمر غير ذلك ، فالحق مع الفرقة الناجية وحدهم ، ومذهب الجمهور هو مذهب المخطئة ، فالحق واحد لا يتعدد وهو مع السنة وأهلها ، وغيرهم ليس الحق معه فيما اجتهد فيه ، لكن الإسلام يجمعهم جميعاً ما بقوا في خطّه العريض .

وبالجملة ، فإني أريد جيلاً إسلامياً جديداً ينظر لعلماء الإسلام ورجالاتهم جميعاً ولأفكارهم نظرة موضوعية ، خالية عن التعصب المذموم ، فيضع الغزالي إلى جانب ابن تيمية إلى جانب ابن حزم ومعهم بشر الحافي وأحمد بن حنبل والحارث المحاسبي وابن القيم ، يجلُّهم جميعاً ويعظهم ويعترف بفضلهم ، ويأخذ منهم ما صفا ويدع ما كدر ، ويأخذ ما وافق جمهور علماء المسلمين ، فما من أحد إلاّ ردَّ ورُدَّ عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ .

٢ـ الدرجة الثانية : درجة العلم :

العلم إمام العمل والعمل هو تابعه ، وقليل العمل مع كثير العلم خير من كثير العمل مع قلة العلم ، إذا روعيت الفرائض والواجبات والسنن الرواتب في كلٍّ .

والعلم جنس تحته أنواع . فعلم الدين ، وعلم الطب ، وعلم الطبيعة ، وعلم الحساب والهيئة (الفلك) وعلم السياسة والاجتماع وغير ذلك ، كلها علوم دوِّنت وضبطت . غير أن أشرفها على الإطلاق علوم الدين ، وما يوصل إليها من علوم العربية ؛ ذلك لأنها علوم الأنبياء ، وهي بعد القاعدة الراسخة المتينة والصخرة الراسية الصلبة ، التي يقوم عليها البناء الحضاري الحق في ظلّ الإسلام .

ولقد قسم العلماء الأوائل العلوم باعتبارات شتّى إلى أقسام ، فقالوا :

العلم : منه علم فرض عَيْن ومنه فرض كفاية ، فعلم فرض العين : ما يجب على كل مسلم تعلمه ، وهو مقدار ما يحتاجه من العقائد والمعاملات ، وكتاب موجز في العبادات مع ضبط ما تجب قراءته من القرآن في الصلاة كما عليه جمهور العلماء ، وما عدا ذلك فرض كفاية ،

وسنة مستحبة ، من علوم الدين وما يوصل إليه ، وكذلك يقال في العلوم الكونية .

ثم العلم كذلك ، وسائل ومقاصد ، فما وضع من العلوم ليوصل إلى غيره فهو وسيلة ، كعلوم العربية والحساب وما إليه ، وما وضع من العلوم مقصوداً بذاته فهو مقصد .

ومن العلوم ما هو حرام التعلم ، كالسحر على القول بوجوده في حيّز الواقع ، وعلم التنجيم يقصد به معرفة المغيبات من الأمور ، ولا يعرفها إلا الله . ومن العلوم ضارٌّ ونافع وما إلى ذلك .

هذا ، وبعد أن أَلقينا نظرة عجلى على تصنيف العلوم والمعارف ، أُحب أن أدخل في البحث مباشرة فيما نحن بصدده ، وهو (قيمة العلم في المنهجية العلمية لإيجاد خطّة عمل لتربية إسلامية شاملة) أو بعبارة أخرى ولا مشاحة في الاصطلاح (ما هو رصيد مقولة العلم في (بورصة) المنهجية العلمية لتربية إسلامية شاملة ؟) .

إذا أردنا بالعلم هنا العلم الديني مقاصد ووسائل ، فإني أفضل أن أقسم الأمة الإسلامية بهذا المنظار إلى قسمين ، هما : (عوام ، وخواص) والفرق هو طلب العلم الشرعي على يد العلماء المتخصصين ، فمن طلب العلم فهو من الخواص ، ومن لم يفعل فهو من العوام ، ولا يفيده حضوره دروس الوعّاظ والقصاص ومجالسهم ، فليست من العلم في شيء ، بل العلم بالرواية والإسناد ، تتبعها الدراية والفقاهة ، والعلم بعد هذا كله يحتاج إلى أمرين اثنين : توقيف وتوفيق .

فسواد المسلمين كالعوام ، حسْبُهم من علوم الدين والعربية ، فرض العين يقيمون به دينهم ، ومكرمة لهم تتبع مجالس العلماء وغشيانها باستمرار ديمة ، ولا يكلفون بذلك إلا بمقدار إحاطتهم بفرض العين ، ثم

يلحقون بعلومهم الدنيوية كالطب والهندسة والصيدلانية أو المهن كالتجارة والصناعة والزراعة وما إليها .

وأما الخواص وهم طلاب العلم ، فيكلفون بحفظ علوم الشريعة من الضياع ، والقيام عليها فهماً وهضماً . فعلمهم فرض كفاية ، وهم مسؤولون عنه بين يدي الله عز وجل في الدنيا والآخرة ، وإني أنصح لسدنة الشريعة هؤلاء ، بأن يدرسوا مبادىء مهمة من علوم الكون والطبيعة والرياضيات ، حتى يكون استيعابهم للشريعة أكثر ، وعرضهم لها أفضل وأكمل ، ولا مانع من توسعهم في هذا الشأن كما كان علماء المسلمين الأوائل وفلاسفتهم ، كابن سينا وابن رشد وأضرابهم ، فهذا بهم أليق وأجمل .

وأستطيع بكل ثقة أن أقول : إن أي تناول للعلوم الكونية في هذا العصر من ينابيعها لدى الأمم الأخرى ، يجب أن يكون مسبوقاً بأرضية علمية إسلامية ، تكون قاعدة الفكرة التي يقوم عليها بناء العلم الكوني المعاصر ، لأننا لنا من إسلامنا العظيم بنظمه وخلود قضاياه ما نحن بغنية به عن أي فكر آخر مستورد .

هذا ، وموقف الإسلام من العلوم الكونية موقف مشرف ، فهو قد أمر المسلمين بالاستقراء والتتبع وإعمال العقل وترديد النظر . قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] . وقرر الفقهاء أن الأمة الإسلامية كلها الأمة شرعاً ، إذا نقص من قوتهم علم من العلوم الكونية هم بحاجة إليه ، ولم يقم أحد منهم عليه ، حتى يتفرَّغَ من يتقنه ويضبطه ويتفوق فيه .

أما فقه النفس وهو ما يعبر عنه اليوم بعلم الحياة ودراسة العصر ، فهذا

مما لا يستغني عنه كل مسلم في هذه الأيام ، فضلاً عن الدعاة والعلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، ولقد كانت مرتبة (فقيه النفس) لا تمنح إلا لجهابذة العلماء الذين وعوا عصرهم ، وعرفوا أهل زمانهم ، فكانت اجتهاداتهم وأحكامهم أقرب إلى روح الشريعة ومقاصدها ، كالعلاّمة ابن عابدين صاحب الحاشية ، والكمال بن الهمام المحقوق حيث أطلق وأضرابهما .

٣ـ الدرجة الثالثة : الفهم :

وهو ما يعبّر عنه بالتربية النفسية :

وهو أمر لا بد منه في صنع الدعاة بخاصة ، وفي التأثير في الجماهير بعامة ، وذلك بتخليص النفس من أمراضها ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨ـ٨٩] . فما لا يتمّ الواجب إلا به فهو واجب ، ولا يتم تخليص النفس من أمراضها إلا بصحبة العلماء بالله عز وجل ، الذين جمعوا الفهم إلى العلم ، والعمل إلى الإخلاص ، وقد ثبت أن الإنسان عاجز عن تطبيب نفسه ، فلا بد من الصحبة في الله عز وجل لمن اكتملت فيه ستَّة شروط : (علم صحيح ، ذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مُرْضية ، وفراسة صادقة ، وإذن من مرشد حي مأذون) .

هذا ، والمرشد ما هو إلاّ دلاّل على بضاعة الرحمن ، كالدليل في الصحراء لمن يقطع مفاوزها شرط في الرحلة وليس الغاية .

وعلى هذا المرشد المربي تقع مسؤولية بناء الشخصية الإيمانية ، فيربط السالك إلى الله برسول الله ﷺ وبالله عز وجل ، ويؤثره ولا يستغله ، ويبنيه بناءً إسلامياً شامخاً علمياً وفكرياً ونفسياً ، حتى يجعله في

عداد العلماء العاملين المخلصين إن كان السالك من طلاب العلم ، أو في عداد الصالحين إن كان غير ذلك ، ولكن ذلك كله مشروط بمتابعة الشريعة الإسلامية والعقيدة الصحيحة المنجية اتباعاً كاملاً لا خلل فيه ، فالمقصود هو (صدق التوجه إلى الله تعالى بما يرضاه ومن حيث يرضاه) .

ومهما كانت الاصطلاحات مختلفاً فيها ، فأنا لا أرى أبداً فرقاً بين اتِّباع السلف ، وبين سلوك الطريق إلى الله عز وجل على يد عالم عامل مأذون موثوق بدينه وعمله وخلقه ، لأن السلف رضوان الله عليهم كانوا يجمعون العلم والعمل والتربية الروحية معاً في نفوسهم ، وأنا أدعو اليوم إلى هذا التكامل في فهم الإسلام ، كما كان يفهمه الصحابة والقرون الثلاثة المشهود لها بالخيرية ، أليس بشر الحافي من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل وكانت بينهما مودة ؟ أليس الفضيل بن عياض من أصحاب الإمام أبي حنيفة ؟ وكذلك داود الطائي ؟ ألم يقل له الإمام أبو حنيفة ياداود هذا العلم وعليك العمل . . . ؟!

أجل ؛ لا مشاحَّةَ في الاصطلاح ، وسموا الأشياء بما تحبون وتشتهون . . . ولكن جواهر الأشياء تبقى بحاجة إلى التكامل ، هذا العنصر الذي لا يوجد إلا في الإسلام ، وبهذا التكامل العجيب استطاع الإسلام العظيم أن يفرض نظرته الصحيحة الموضوعية على منطق الحياة .

وهذا التكامل عبّر القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء : ٧٩] . وهو الفهم وهو فوق العلم ، فالإسلام دوحة كبيرة سلّمها الإخلاص وثمرتها التوسم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٥] . فكل فكر لا يقوم على الفهم بعد العلم فهو هشٌّ متهافت .

٤ـ الدرجة الرابعة : درجة بناء الفكر :

وذلك يكون :

١ـ أولاً عن طريق النضج والتكامل .

٢ـ وثانياً عن طريق الحصافة ؛ وهي الدربة وحسن التصرف مع الاستقامة والصدق . قيل لسيدنا علي رضي الله عنه وكرم وجهه : ما تقول في أمير المؤمنين عمر ؟ قال : (رحم الله أمير المؤمنين عمر كان له عقل يمنعه أن يخدع ، وورع يحجزه عن أن يخدع) . وهذه الشهادة تدل على أمرين : عظمة المشهود له ، وعظمة الشاهد رضي الله عنهما .

٣ـ وثالثاً عن طريق الصلوحية ؛ وهو ما يسمى بعناصر البقاء ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] .

٤ـ ورابعاً : عن طريق التواكب مع مقتضيات العصر ؛ وهو المرونة وقابلية الحركة ، عبر إطار من الوسائل الشريفة ، فأشرف المقاصد والغايات ، لا تنال إلا بأشرف الوسائل .

٥ـ وخامساً الحكمة : وهي وضع الأمور في نصابها ، وهي ثمرة الثمرات ، وغاية الغايات ، ونهاية الطريق ، ورتبة التحقيق ، ولا يكون مابعدها إلا المعرفة ، قال تعالى :

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

٦ـ وسادساً : الحرقة وهي مفتاح المفاتيح وإكسير العمل : « هلك العالمون إلا العاملون ، وهلك العاملون إلا المخلصون ، والمخلصون على شفا جرف » ؛ وحال رجل في ألف رجل خير من وعظ ألف رجل في رجل .

ما أسهل تنميق الكلام وترصيفه ، وما أصعب أن يعيش المرء حياة الإسلام كما عاشه السلف الصالح علماً وعملاً وإخلاصاً وذكراً ومذاكرة وخشية من الله ووقوفاً عند حدوده ، حتى لكأن أحدهم قرآن يمشي على الأرض .

لقد كان الرسول الأعظم صلوات الله عليه وبعض أصحابه إذا قاموا إلى الصلاة فقرؤوا من القرآن سمع لصدره وصدورهم أزيز كأزيز المرجل .

إن الإسلام انتشر بالقدوة من التجار الأوائل الصالحين والعلماء بالله تعالى العارفين ، وما كان السيف إلاّ لقتل طواغيت الأرض الذين يصدون عن الإسلام ويبغونها عوجاً ، حرصاً على زعاماتهم الجوفاء ، ولكن المسلمين لم يكرهوا الشعوب على الدخول في دينهم ، وإنما دخل الناس في دين الله طواعية واختياراً يوم رأوا بأُم أعينهم استقامة المسلمين وصدقهم مع الله ومع أنفسهم ومع الناس ، إلا العرب فما كان يقبل منهم إلا الإسلام ، لأنهم قبيلة النبي وعشيرته وأولى الناس به .

قبل أن نربي النشء يجب أن نربي الدعاة على الرحمة والشفقة والرفق ، حتى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والوقوف في وجه الباطل وأهله ، فمن مصدر الرحمة بهم والشفقة عليهم وتمني الخير لهم ، وهو معنى قول النبي صلوات الله عليه فيما ورد عنه في ماعز ، لما رجم بالإقرارات الأربعة منه ، فأدركه حرّ الحجارة فهرب فلحقوه فأجهزوا عليه : « هلا رددتموه إليَّ ؟ لقد تاب توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم » .

أما بعد ، فالله تبارك وتعالى سمّى ذلك كله تجارة ، وجعل لها سوقاً وربحاً ورأسمال ، وجعل لها موسمين في الدنيا ومكافأتين في الآخرة ، فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ
وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾
وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف : ١٠-١٣] .

* * *

كيف يكون العُرسُ... في الإسلام؟

يتوهم الكثيرون من المسلمين المثقَّفين وغير المثقفين ، أن الإسلام لا يهيمن وما كان له أنْ يهيمن على الأفراح ، ولاسيما الأعراس ، ذلك لأن الإسلام في نظرهم دين يهتم بالعبادات ، كما هو الأمر في الأديان السماوية الأخرى ، لا هيمنةَ لها إلا على الطقوس الكنَسية وما شابه ذلك وقاربه ، ولا سلطان لها على شيء من أمور المجتمع . . .

ويخطىء هؤلاء كل الخطأ ، لأنهم قاسوا الإسلام على غيره ، ذلك لأن الإسلام دين يهيمن على الحياة الاجتماعية برمتها ، أفراحِها وأتراحِها ،وسَرّائها وضَرائها ، حلوِها ومُرِّها وحامِضها ، وسرِّها وعلانيتها ، وهذا من طبيعة هذا الدِّين ، فهو ذو شمولية وسلطانٍ على الحياة كلِّها بشؤونِها ، وليس لغير الإسلام هذا السلطان وهذه الهيمنة ، فهو ينظِّم العلاقات الناظمة لما بين الإنسان وربه أوّلاً ، ثم لِما بين الإنسان ونفسه ، ثم لما بين الإنسان والإنسان .

وتتجلَّى هذه الشمولية المهيمنة الطاغية في مشتهيات الإنسان ومَلَذَّاته ، حيث يظهر هذا الدين الحق المتكامل على حقيقته ، فهو لا يمنع هذه الملذات ولا يفتح أمامها الأبواب على مصراعيها ، بل يضبطها وينظِّمها تنظيماً حسَناً موفَّقاً ، يَدَع خيرها ويتقي شرَّها .

ومن هذه الملذات العُرْس ، فله في الإسلام قواعد وآداب لا يجوز أن

يُحادَ عنها ، وإلا انقلب عرساً جاهلياً ، فالإسلام الذي أشرف على عقد القِران لكلٍّ من الزوجين على الآخر ، حيث استحل كلٌّ منهما من صاحبه التمتع به بكلمة الله عز وجل ، هو الذي يجب أن يُشرف على الزِّفاف أيضاً ، لأنه أهم مقاصد العقد وأجلُّ ثمراته .

وكأَيِّن من الناس يستنكر هذا التدخل من الإسلام في العرس ، فحسبه أنه أشرف على العقد ثم ترك ما وراء ذلك للناس وللعريسين يقرونه حَسْب أهوائهم .

لذا كان من المفروض بالرجل المسلم أن يتقي الله في حفل زفافه ، بعد أن اتقى الله تعالى في عقد قرانه ، وأن يجعلهما إسلاميين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وألاّ يتساهل في هذا الأمر ، فإن التساهل يجر إلى المخالفة .

والعرس الإسلامي هو ذلك الحفل الذي يُعلَن فيه زفاف زيد على هند ، ثم لا يكون في هذا الذي يفعله الزوجان العروسان أو الأقارب أو المدعوون والمدعوات شيء مما يغضب الله ورسولَه ، ولا يتخلله ما يخالف شرع الله عز وجل .

ولهذا السبب كانت إجابة دعوة العرس واجبةً شرعاً على المسلم ، ما لم يكن فيها منكَر متفَق عليه شرعاً أنه منكر أو معصية ، وفيما عدا ذلك لا يجوز للمسلم أن يتلَكَّأَ عن دعوة العرس أو يتخلف ، فالمسلمون بحضورهم هذا الاحتفال يعلنون أمر النكاح المطلوب إعلانه شرعاً ، ولا بأسَ لهم أن يتعاطوا فيه أيَّ مباح شرعاً ، من طعام وشراب وإنشاد شعر مليح ، بل يُسَنُّ إطعام الطعام للناس كما ورد في فعله صلوات الله عليه وأمره ، ويجوز أيضاً رفع الصوت من الرجال دون النساء إلا الزغاريد بجماعة منهن ، فإنها تجوز شريطة أَلاَّ يُعرف صوت واحدة منهن عن

الأخرى ، وكذلك يجوز إشعال الأنوار بغير سرف ، وإظهار الفرح من كل ما يدعو إلى إعلان أمر النكاح وإظهاره وإضفاء جو البشاشة على هذا الحفل البهيج .

الإسلام لا يحرم زينة الله وما أخرج لعباده من الرزق ، بل يحرم عليهم أموراً تضرهم في دنياهم وآخرتهم ، وتكون سبباً للبلاء وباباً للمفسدة وذريعةً للانحراف ، فحرمه عليهم سداً للذرائع الفاسدة ، وفَتَح باب الذرائع الصالحة ، فأبقى ما وراء ذلك على الإباحة الأصلية ، وفي ذلك كلُّ العدل والإحسان .

ولا يمنع الإسلام أبداً من كل حلال طيب مبارك نفَّاع للفرد والجماعة ، إذا ثبتت مصلحته في نظر الإسلام ، ولا يؤاخذ عليه ولا يُرتب عليه مغرماً ولا مأثماً ، بل ربما سنَّه وحثَّ عليه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] ، ولقد ورد عنه صلوات الله عليه أنه قال لبعض أصحابه من المهاجرين وقد حضروا عرساً لبعض الأنصار ، ظَلُّوا فيه ساكتين ظناً منهم أن ذلك من لُبِّ الشريعة ومقاصدها ، قال لهم متمثِّلاً : « هلاَّ قلتم :

أتيناكم أتيناكم ... وللأبواب جئناكم
فحيَّانا وحيَّاكم ... ولولا الحبة السوداء
ما جئنا لواديكم ... إلخ »

هذا ، ولقد كره الإسلام اجتماع النساء في الأعراس ، لما يلحقه من الفتنة وما يكثر فيه من مخالفة لأحكام الشريعة والتبذّل ، واستثنى من ذلك أقارب كلٍّ من الزوجين الأدنين المحارم ، وشَرَط عليهم عدم رفع الصوت والحجاب الشرعي عند الخروج في الطريق ، وستر ما بين السرة والركبة

أمام النسوة أمثالهن والركبة داخلة في العورة ، وعدم دخول الرجل الأجنبي على النساء مهما كان السبب ، ولو كان عريساً (والفصيح عروساً) .

بهذه الشروط جاز للأقربين الأدنين والمحارم من أقارب الزوجين الحضور لحفل الزفاف ، ولا داعي لحضور غيرهم لما يترتب عليه من المفاسد ، والأفضل في النساء السَّتْر والصون ، فالسيدة زينب بنت جحش أم المؤمنين التي زوج الله بها نبيه ﷺ في القرآن ، حضرت العرس وَحْدَها قبل نزول آية الحجاب ، وأدارت وجهها إلى الجدار ولم يحضر معها أحد من النسوة ، وفي ذلك درس بليغ لنساء هذه الأمة ، أفتكون بناتنا خيراً من أمهات المؤمنين ؟!!

* * *